حامد عبد الصمد

سقوط العالم الإسلامي

نظرة في مستقبل أمة تحتضر



حامد عبد الصمد

سقوط العالم الإسلامي

نظرة في مستقبل أمة تحتضر



سطور

سقوط العالم الإسلامي

نظرة في مستقبل أمة تحتضر

حامد عبد الصمد

The Fall of the Islamic World

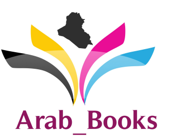
Hamed Abed Al Samad

الطبعة الأولى: 2016

«إذا كان المرء لا يدرى إلى أي ميناء يريد أن يذهب، فإن كل ريح تهب عليه لا تناسبه».

فرانسيس بيكون




Arab_Books

إهداء...

إلى روح نصر حامد أبو زيد



مقدمة..
أو الشرق يحترق

قبل عشرة أعوام كنت أدرس العلوم السياسية بإحدى جامعات ألمانيا. لم تسر الدراسة في البداية على ما يرام، وبدأت مشكلات الهوية والعقيدة تلاحقني وتكدر على حياتي في غربة الشمال الباردة. فجأة تحول ذلك الطالب المصري الذي جاء إلى ألمانيا باحثاً عن العلم والحرية إلى جندي من جنود صراع الحضارات. ولكن الجندي كان بلا حول ولا قوة، ولم يكن يمتلك سلاحاً سوى تمجيد الذات ولعن الآخرين. نسيت مع مرور الوقت قضايا بلادي التي كانت تؤرقني وصرت أركز على أمراض المجتمع الألماني، أدرسها وأحللها. كان يعجبني الكُتّاب الألمان الذين يجْلدون ذواتهم ويحاكمون بلادهم ويدينون رأسماليتها وسياستها الاقتصادية المتعسفة وتاريخها العنصري الأسود. كانت مثل هذه الكتب تزيد حنقي على هذا البلد وتبرر عدم قدرتي على الاندماج فيه أو تحقيق أي نجاح يذكر.

وفى أحد الأيام سقط في يدي كتاب قديم ظننت أنه كنز هائل يحمل نبوءة يتمناها الكثيرون في بلادنا؛ إنه كتاب «سقوط الغرب» للفيلسوف والمؤرخ الألماني «أوزفالد شبنجلر» الصادر عام 1918، الذي يسرد فيه



الأسباب التي يرى أنها ستؤدي إلى انهيار الحضارة الغربية. وجدتني ألتهم الصفحات الأولى من الكتاب تملؤني الشماتة والترقب، ولكنني ما إن فرغت من قراءة المقدمة الطويلة جدا للكتاب حتى شعرت بالإرهاق. بغض النظر عن لغة الكتاب الصعبة للغاية، أرهقني وصف «شبنجلر» لشيخوخة المدنية الأوروبية كحضارة فقدت بوصلتها وروحها وسقطت في غياهب المادية والعنف.. وجدتني متلبسا بسؤال نفسي: هل يصف الفيلسوف الألماني حال حضارته في بداية القرن العشرين أم حال حضارتي في بداية القرن الحادي والعشرين؟ ألا ينطبق ذلك الوصف أيضا على حال العالم الإسلامي المعاصر؟

واصلت القراءة حتى وصلت إلى هذه الجملة: «وفى النهاية ستنطفئ نار الحضارة، ولكنها ستحاول أن تستجمع ما تبقى لها من قوة فتتذكر أمجاد ماضيها الأول.. ستحاول الرجوع إلى طفولتها، ولكنها في طريقها ستفقد قدرتها على السير ورغبتها في الحياة فتسقط منهكة ويائسة في حِجر أمها، ثم ستحاول الفرار إلى ظلمة رحم الأم، فينتهي بها المطاف إلى المقبرة».

رأيت أمامي حضارة إسلامية تتنفس بصعوبة وهى تقف عند مفترق الطرق ولا تدرى إلى أين المصير. الدنيا كلها ترى أعراض المرض على وجهها، ولكن المسلمين لا يزالون يكابرون ويلومون الناس جميعا إلا أنفسهم. رأيتهم يفرون من واقعهم الحالي إلى مغارات ماضٍ ولّى فيحلمون بغزو العالم من جديد بسيوف من خشب وشعارات من سراب.

لم أشعر بشماتة في الغرب وأنا أقرأ كتاب «شبنجلر»؛ ولكنى شعرت



بغضب وصداع جعلاني أنحي الكتاب جانبا دون أن أتم قراءته. أدركت للمرة الأولى أن تصوري لحضارتي ليس إلا فقاعة أختبئ فيها من خزي الواقع، وكذبة أهوّن بها على نفسى مرارة قلة الحيلة. منذ ذلك اليوم صرت أكره «شبنجلر» وكتابه وألمانيا معاً.

وبعد مرور عشرة أعوام أتتني الشجاعة مرة أخرى لإعادة قراءة «سقوط الغرب»، ولكن بفهم آخر. حاولت أن أتبع نصيحة «شبنجلر» أنه على الإنسان أن يواجه سقوط حضارته بشجاعة ووعي، وألا يرى فيه السيئ فقط، لأنه لا توجد حضارة دامت إلى الأبد، وسقوط الحضارات ليس إلا سنة من سنن الحياة. ويبدو أن «شبنجلر» قرأ أعمال ابن خلدون جيداً، على الرغم من أنه لا يشير إليه في كتابه. فهو يتحدث عن الحضارة كزهرة تنبت ثم تتفتح ثم تتهالك، وهو أقرب لتشبيه ابن خلدون للحضارة ككائن حي يمر بمراحل الولادة والشباب والشيخوخة. وهى مراحل مرت بها كل الحضارات بداية من الفراعنة والسومريين ومروراً بالإغريق والرومان وانتهاءً بالدولة العثمانية. ويقول «شبنجلر» إن المدنية ليست سوى المرحلة الأخيرة من الحضارة، حيث يسترخي السكان في المدن فينطفئ لهيب الإبداع وتختفي الرغبة في الكفاح بداخلهم، وهى أيضا نظرية طرحها ابن خلدون في «علم العمران»، حين تحدث عن العصبية كأداة من أدوات الحرب. ويرى ابن خلدون أن العصبية تموت في المدن.

ويرى «شبنجلر» أن المرحلة الأخيرة من الحضارة تتصف بالجمود في كل مجالات الحياة، فيفقد الناس وعيهم بالتاريخ وتنتشر الفوضى الفكرية ويختفي الفن الحقيقي وتسود التسلية الرخيصة فلا يبقى في تفكير الناس سوى الخبز واللعب. ولو أننا نظرنا خلف أقنعة التدين



التي تغطي الوجه الحقيقي لحضارتنا الإسلامية المعاصرة لوجدنا أن هذه الظواهر التي يتحدث عنها «شبنجلر» تسيطر على مجتمعاتنا بصورة واضحة.

فقد انتشرت عندنا ثقافة الاستهلاك الأعمى وتجاهل البيئة، وأصبح الخبز والتسلية هما شغلنا الشاغل، حتى صارت نتيجة مباراة كرة قدم بين مصر والجزائر أهم عندنا من مصير بلادنا السياسي. صرنا نستورد المنتجات الغربية ولكننا نرفض الروح التي أنتجت تلك الأشياء وهي روح الحرية الفردية والبحث والمراجعة ومحاسبة الذات وحماية البيئة.

بُنيت الحداثة على خمسة أعمدة: العلم، والإنتاج، والاستهلاك، والقوة العسكرية، وأفكار حركات التنوير الأوروبية. ويبدو أن معظم البلدان الإسلامية قد استعارت فقط مبدأي الاستهلاك والتسليح وأهملت ما تبقى من دعائم المدنية الحديثة فتهالكت وشاخت وصارت لا تقدم للبشرية شيئا يذكر.

إن ما نراه اليوم في عالمنا الإسلامي ليس صراعا بين الحداثة والتراث، كما يزعم البعض، ولكنه حالة احتضار للثقافة العربية والإسلامية التي لم تعد قادرة على طرح إجابات حقيقية لأسئلة العصر الملحّة. هي حالة من الارتباك والتشنج الفكري أودت بالبعض منا إلى الانفصام، وبالبعض الآخر إلى اليأس، وبالآخرين إلى العنف والتطرف. إنها حالة من اليتم الثقافي والفقر الروحاني نحاول أن نخبئها خلف التدين الزائف أو الصراخ المدوي على قضايا تافهة وصورية. الدين الإسلامي يختفي تدريجيا من القلوب والضمائر، وصار لا يظهر سوى في اللحى



والشعارات. فإن من يصرخ باسم ربه في الطرقات وعلى الفضائيات قد فقده في وجدانه منذ زمن. كل هذه دلائل واضحة على السقوط الفكري للعالم الإسلامي الذي ينذر بسقوط مادي وشيك.

في الغرب ينخدع الكثيرون بأسلمة الشوارع وصراخ المتطرفين في بلادنا فيعتقدون أن الإسلام يزحف بقوة نحو أوروبا ليحتلها ويُؤسلمها. أما نحن فنرى أن الغرب هو الذي يطل علينا دائما بسفنه الحربية ليحتل أراضينا ويدنس مقدساتنا. إذا قرأ الغرب تاريخنا معه فلا يتذكر سوى غزو الأندلس وهجمات البربر والزحف العثماني على أوروبا، أما نحن فلا نتذكر سوى الحروب الصليبية والاستعمار. وإذا نظر الغربيون إلى التاريخ المعاصر تجدهم يبدؤون بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، أما نحن فنبدأ باحتلال فلسطين والعراق. ومع أن جميع تلك الأحداث حقيقية وثقها التاريخ، فإن قراءتنا لها سواء في الشرق أو في الغرب مغلوطة أو على الأقل منقوصة. فمشكلتنا عندما نقرأ التاريخ أننا لا نرى إلا أنفسنا ولا نواجه سوى مخاوفنا. إذا قرأنا التاريخ نفضل أن نعظم ذواتنا ولا نرى في الآخر إلا شيطانا بلا رحمة، عكسنا تماما أو عكس ما نحب أن نكون.

العالم الإسلامي لا يشعر بالفتوة ولكن بقلة الحيلة. فلا نحن تصالحنا مع المدنية الحديثة وروحها، ولا نحن عدنا إلى العصبية العربية القديمة التي كانت قادرة على تعبئة الفرسان وتجييش الجيوش. صارت مدنيتنا في بطوننا، وجيوشنا في حناجرنا. نعيش حالة من الجمود الفكري والسياسي في عصر العولمة الذي يحتاج المرونة، وتدهور تعليمنا في عصر العلم، وتفاقمت الكوارث البيئية والجوية لتهدد مستقبل الاقتصاد



في الدول الإسلامية بل وتهدد مياه الشرب. هذه هي الأسباب التي تجعل نبوءة سقوط العالم الإسلامي ليست مجرد ضرب من ضروب قراءة الكف، بل نظرية لها أبعاد تاريخية واجتماعية وسياسية.

ومن الممكن، إذا تخلينا عن العنجهية و«النفخة الكذابة»، أن نرى في هذا السقوط فرصة طيبة لبداية جديدة. فسقوط بيت قديم لا يعنى نهاية الحياة بل إمكانية لبناء بيت آخر على أساسات أخرى تتناسب مع روح العصر ومتطلباته. وبذور العصر الجديد موجودة في بلادنا، فإذا نظرنا إلى مصر وإيران على سبيل المثال سنجد، إلى جانب النظم القديمة المتآكلة أيضا، روحا شبابية جديدة تطمح للتغيير والتجديد. إن صراع الحضارات لم يعد نبوءة بل صار واقعا ملموساً. ولكن هذا الصراع ليس قائما بين الشرق والغرب فقط كما يرى «صامويل هنتنجتون» ولكنه صراع بين الشرق والشرق أيضاً.. بين روح التغيير وروح الجمود داخل البلدان الإسلامية ذاتها. آلاف الشباب قرروا ترك الهيكل القديم والبحث عن حلول فردية تناسب طموحاتهم وضروريات حياتهم. ولكن الهروب من نظام قديم يتطلب بنية تحتية جديدة قائمة على أسس سليمة وراسخة.. وإذا لم تتوفر تلك الأسس لهؤلاء الشباب فسوف تهدر طاقاتهم وربما تنتهي إلى عنف وفوضى. القاهرة وطهران وغيرهما من العواصم الإسلامية صارت مسارح لهذا الصراع الذي ستقرر نتيجته مستقبل أمة بأكملها.

وهذا الصراع بين قوى الإصلاح وقوى الأصولية ليس جديدا في العالم الإسلامي، بل يرجع إلى القرن الثامن الهجري حيث دار الجدل بين المعتزلة وأهل السنة حول طبيعة القرآن. وتكرر الأمر في الأندلس



في القرن الثاني عشر بين فكر ابن رشد العقلاني وفكر الغزالي السلفي. وفى نهاية القرن التاسع عشر جاء الإمام محمد عبده بأفكار تنويرية جديدة تساعد على تصالح الدين مع المدنية الحديثة. وكان من بين طلاب محمد عبده كل من رشيد رضا (السلفي)، وعلى عبد الرازق (التقدمي). وإذا نظرنا اليوم إلى الخطاب الديني المعاصر لوجدنا الكثير من فكر رشيد رضا والقليل جدا من فكر علي عبد الرازق.

إذن فالمشكلة ليست عدم وجود حركات إصلاحية، وإنما لب القضية أن أفكار الإصلاح كانت تواجه دائما معارضة شديدة من التيار المحافظ. وكانت المشكلة دائما أن الإصلاحيين لم يخوضوا المعارك الدينية والفكرية حتى النهاية، وكأنهم لم يكونوا يثقون في أنفسهم بقدر يجعلهم يقفزون فوق أسوار الممنوعات الفكرية. وكان المثقفون دائماً يساندون الإصلاحيين في البداية ثم يتخلون عنهم في اللحظات الحرجة ويتركونهم فريسة لدعاوى التكفير والخيانة. كل تيار إصلاحي في العالم الإسلامي ينتهي دائماً أمام أسوار السلفية المنيعة أو يتحطم على صخرة السلطة المتعجرفة، لأن كلاً من السلفيين وأصحاب السلطة يستندون إلى المحرمات والخطوط الحمر في الفكر: لا مساس بالقرآن، لا مساس بالرسول، لا مساس بالعقيدة، لا مساس بما عُلم من الدين بالضرورة، لا مساس برموز الدولة، لا مساس بسمعة الوطن. لذلك فإن السلفية والسلطة ينتصران دائما في نهاية كل صراع فكرى أو سياسي لأنهما يمارسان نوعاً من أنواع حرب الاستنزاف مع أصحاب الفكر التقدمي فيتركانهم يصرخون ويتخبطون حتى يفقدوا طاقتهم. السلفية تكرر الحجج القديمة نفسها وتتحصن بالنصوص



الدينية التي لا مساس بها. أما السلطة فتطعن أعداءها بسهام مسمومة وتتركهم ينزفون ببطء ويموتون في صمت. ولذلك فإننا نلاحظ وجود تحالف غير مكتوب بين الحكام وبين أنصار الفكر السلفي في كثير من البلدان الإسلامية، لأن لهما الهدف نفسه، وهو إسكات كل صوت يدعو إلى الانفتاح والتغيير. تتظاهر الحكومات بمحاربة التطرف في حين أن سياساتها تدعم التعصب. ويتظاهر الأصوليون بمحاربة أصحاب السلطة في حين أنهم يساندوها عن طريق عرقلتهم لمساعي الإصلاح الفكري. وهناك ظاهرة جديدة نلاحظها وهو دخول السلطة والإسلاميين في سباق أيهما أكثر تديناً وتقوى لله، والخاسر في هذا السباق ليس أحدهما، بل أنصار التغيير.

لذا فإن الإصلاح الفكري والديني والسياسي الحقيقي من وجهة نظري لن يأتي إلا إذا اتفقنا على أنه لا توجد محرمات ولا ثوابت في الفكر، ولا آلهة على الأرض. علينا أن نتفق على أن كل شخص وكل شيء مهما كانت قدسيته يمكن وضعه في ميزان العقل؛ أو حتى النقد. ولست أدرى لماذا يخاف المتدينون من نقد بعض مفاهيم الدين، فإذا كان المرء ثابتاً في عقيدته وفاهماً لدينه فلا داع للخوف من الانتقاد، وإذا كان لا يفهم الكثير منه وليس على يقين من أمره فإن النقد والنقاش يساعدان على توضيح الرؤية وتصحيح المفاهيم. وبالمثل فإن نقد الحكام هو معيار هام من معايير الديمقراطية، وهذا النقد لا يطيح بالحكام في الغرب؛ ولكنه يؤكد للشعب أنهم ليسوا آلهة. وعلاقة الشعب المتوازنة وغير المتشنجة بالمقدسات وبأولي الأمر هي أساس أي مجتمع مدني متقدم.



ولكن أسئلة الإصلاح الديني يجب ألا تبدأ دائما من نص القرآن وتنتهي عنده؛ بل عليها أن تصل إلى خطاب «ما بعد القرآن». فالإرهابيون يبررون أعمالهم الإجرامية بنصوص القرآن.. والإصلاحيون يحاولون أن يفعلوا الشيء نفسه بالبحث بين آيات القرآن عما يبرر التسامح والتعايش السلمي، ولكن فى كلتا الحالتين نصل إلى نتيجة أن القرآن وحده هو الذي يحدد أطر الحياة وهو وحده القادر على طرح إجابات لأسئلة العصر حتى في القرن الحادي والعشرين. وخطاب «ما بعد القرآن» يعنى ألا نحمل القرآن فوق طاقته، وأن نبحث لحياتنا اليومية عن إجابات أخرى قائمة على إعمال العقل والتفاوض بين البشر، والحلول الوسط. والشيء نفسه ينطبق على الإصلاح السياسي، فالقضية ليست في المقام الأول تغيير مواد الدستور وقواعد الانتخابات، ولكن فهم عامة الناس منطق الديمقراطية واستعدادهم للمشاركة السياسية هو الذي سيؤدى للتغيير.

وجه إلى أحد المستمعين بمحاضرة مفتوحة لي بجامعة ميونيخ سؤالا محرجاً جداً ذات مرة: ماذا سيفقد العالم لو اختفت جميع الدول الإسلامية مرة واحدة؟ فكرت كثيرا ولم أجد جوابا يتناسب مع غرض السائل. وفى النهاية أجبته أن العالم سيفقد البترول وأماكن جميلة للسياحة وأكثر من مليار شخص يستهلكون المنتجات الغربية وينشطون الاقتصاد الأوروبى والصيني.

ما أراد السائل أن يوصله لي هو: ماذا يقدم المسلمون للعالم اليوم في مجالات العلم والإنتاج والثقافة والفنون؟ وليس من الصعب أبدا الإجابة عن هذا السؤال بـ: لا شيء يذكر. ولو استمر الأمر على هذا



النحو فسيكون سقوط العالم الإسلامي سُنة من سنن الكون ونبوءة تنبأ بها القرآن في سورة الرعد ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾.

ما أحاول أن أقدمه في هذا الكتاب هو نظرة إلى تاريخ السقوط الإسلامي وتحليل سياسي لأبعاده ونتائجه وما يعنى ذلك للعالم لو سقط جسد ثقيل مثل الجسد الإسلامي في قلبه. بالطبع فإنه من الصعب الحديث عن عالم إسلامي واحد؛ فهناك تباين واضح بين المغرب وإندونيسيا وبين دبي والسنغال. ولكنى لا أتحدث عن العالم الإسلامي ككيان سياسي وإنما كحضارة وككتلة ثقافية تجمعها أفكار ومبادئ متقاربة. وأرى أن بعض هذه الأفكار تقف حاجزاً بين العالم الإسلامي وباقي البشرية؛ فكل الإحصائيات العالمية والمحلية تؤكد أن العالم الإسلامي صار في ذيل الأمم، من حيث تطوير التعليم والبحث العلمي وحماية حقوق الإنسان والمرأة والبيئة.. وكلها عوامل تؤدى إلى العزلة عن العالم وضعف الاقتصاد واستحكام الدكتاتورية. حتى إندونيسيا وماليزيا وتركيا التي كنا ننظر إليها كنماذج ناجحة في مجالات الاقتصاد والتعليم والديمقراطية بدأت في التراجع عن خطواتها التقدمية وسمحت لقوى المحافظين والسلفيين بفرض أفكارها. حتى في هذه الدول الثلاث يزحف الإسلام السياسي نحو السلطة ويحاول عرقلة الخطوات الديمقراطية.

ولكن الدول العربية بالتحديد هي أقرب دول العالم الإسلامي للسقوط. البشر والتصحر والاستهلاك والتزمُّت الفكري في زيادة مستمرة؛ بينما الإنتاج والموارد الطبيعية ومستوى التعليم في انحدار ملحوظ. آبار البترول تقترب من الجفاف والتغيرات البيئية تهدد مستقبل



السياحة والشواطئ كما تهدد مستقبل الزراعة والمواد الغذائية. كل ذلك ينذر بحدوث فوضى ومجاعات لن تقدر الحكومات العربية على مواجهتها. في الوقت ذاته يزداد التطرف الديني وعدم التسامح مما سيؤدى إلى صراعات أخرى. ما حدث في الجزائر والصومال والسودان قد يكون مصير مصر والمغرب والأردن وسوريا قريبا.

لو قارنا العالم الإسلامي المعاصر بسفينة «تايتانيك» قبل غرقها لوجدنا تشابهاً كبيرا بينهما. السفينة الإسلامية تقف وحيدة ومكسورة وسط محيط بارد ولا تدرى كيف النجاة. مسافرو الدرجة الثالثة ينامون في جحورهم ولا يعلمون شيئاً عن المصيبة القادمة. الأغنياء يحاولون الفرار في قوارب النجاة القليلة ويريدون في الوقت ذاته أن يربحوا من الكارثة. رجال الدين يكررون نفس الطلاسم والشعارات ويطالبون الناس بالصبر. أما من يسمون أنفسهم بالمصلحين فيذكرونني بعازفي الموسيقى على متن «تايتانيك» الذين واصلوا العزف حتى غاصت السفينة في البحر. كانوا يعزفون ويعزفون رغم إدراكهم أن أحداً لا ينصت إليهم على الإطلاق.

ولكن، هناك فرق واضح بين السفينتين. فبينما دخلت «تايتانيك» البحر جديدة وعملاقة، فإن السفينة الإسلامية قديمة ومهشمة منذ قرون. كانت محملة بما يزيد على طاقتها وتسير بلا بوصلة. ولأنها لم تدر إلى أين تريد أن تذهب كانت كل رياح البحر غير مناسبة لها. وكان احتكاك بسيط بجبل ثليج اسمه «الحداثة» سبباً كافيا لتفقد السفينة الإسلامية توازنها. والآن نراها تقف مكسورة تملؤها مياه البحر، ومع ذلك يصر معظم ركابها على أنها لن تغرق لأنهم يرون في إبحارها أمراً إلهياً.



المسلمون استنفدوا رصيدهم الحضاري والثقافي ويعيشون اليوم على ميراث لم يعد يسمن ولا يغنى من جوع. ولو كان العالم الإسلامي شركة أو مؤسسة لأفلست منذ زمن. وما يحتاجه هذا العالم الإسلامي اليوم ليس المكابرة والعنجهية بل عملية إشهار إفلاس مقننة. يحتاج المسلمون لعملية جرد يتخلصون بها من حقائب السفر التي تعرقل رحلتهم نحو الحداثة والتطور. يحتاجون إلى التخلص من نظرتهم التمجيدية لذواتهم وحضارتهم وإلى إعادة نظرتهم إلى المرأة ودورها، للتاريخ وأفخاخه، إلى الدين ومحدوديته، إلى المثل الأعلى ومفهوم العدو.

في دراسة للمؤرخ الألماني «دان دينر» بعنوان «مفقودون في الدين» يلوم المؤلف على العالم الإسلامي أن الفكر واللغة لا يزالان رهينين للفكر الديني ولغته، مما يجعل فكرة المجتمع المدني بعيدة عن واقعهم. وهى فكرة طرحها أيضاً الشاعر السوري «أدونيس» خلال زيارته لإقليم كردستان العام الماضي حين لام على العرب أن لغتهم صارت جامدة وأن ثقافتهم صارت بيروقراطية تديرها الدولة، وصاروا لا يقدمون أي جديد للعالم، ولذلك فإنهم سينقرضون عما قريب.

ولكن الباحثين الفرنسيين «يوسف كورباج» و«إيمانويل تود» يتنبآن بثورة تغيير كبيرة يشهدها العالم الإسلامي خلال السنوات القادمة. قام الباحثان بعمل إحصائيات موسعة في جميع أركان العالم الإسلامي وتوصلا لنتيجة غريبة؛ وهى أن معدلات الولادة انخفضت بشكل ملحوظ في جميع الدول الإسلامية في العشرين سنة الماضية، في حين زادت نسبة التعليم بين البنات والأولاد على السواء. ويقول الباحثان

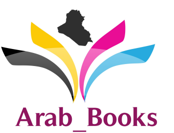


إن التعليم يجلب معه في البداية دائما ظاهرتين متوازيتين: روح التطور والرغبة في التغيير من ناحية، والاضطراب النفسي وعدم الرضا بين الشباب من ناحية أخرى. ومن وجهة نظر «كورباج» و«تود» فإن التعليم هو المسؤول عن التطرف بين شباب المسلمين، لأن الوعي بالقضايا الاجتماعية يزيد بين الشباب، ولكنهما يؤكدان أن التطرف ليس إلا ظاهرة مؤقتة ستنتهي قريبا.

أما هذا الكتاب «سقوط العالم الإسلامي» فلا يقدم دراسة إحصائية؛ بل نظرة تحليلية للحالة الفكرية والتطورات السياسية والاجتماعية في العالم الإسلامي. سيتطرق الكتاب لنظرة المسلمين إلى التاريخ وعلاقة الدين بالسلطة، كما سيناقش قضايا التعليم والخطاب الديني ومشكلات البيئة التي تهدد العالم الإسلامي. وستكون مصر فى بؤرة النقاش؛ حيث إنها كانت دائما مسقط رأس معظم حركات التطوير والتنوير كما كانت أيضا صاحبة السبق في إنتاج الفكر المتعصب والحركات الإرهابية.

ما أريد أن يتفهمه القارئ هو أن هدفي ليس ذم الإسلام ولا الدفاع عنه في هذا الكتاب؛ وإنما أحاول التعامل مع كيان مريض اسمه العالم الإسلامي من وجهة نظر نقدية تحليلية. والمريض لا يشفى بإغلاق عينه عن الحقيقة وتجاهل وصفات الدواء، بل بمواجهة الذات وإدراك أين يكمن أساس المرض. المريض يحتاج أن يعترف أنه مريض أولاً!




Arab_Books

ديناميت اسمهُ التاريخ..

أو أرجوك لا تأخذ عدوي مني!

أعيش في مدينة ميونيخ الألمانية منذ عامين تقريبا، ومن أجمل الأماكن التي تعجبني هناك هي حديقة القرية الأولمبية، وبالتحديد جبل جميل جدا يتسلقه زوار الحديقة ليستمتعوا من فوقه بنظرة «بانورامية» على كل المدينة. هو ليس مثل جبل الأوليمب ولا قمة إيفرست، بل هو هضبة صغيرة لا تتعدى في علوها مائة متر. ولكن صارت لهذا الجبل عندي دلالة رمزية كبيرة، فهو جبل صناعي بناه سكان ميونيخ من حطام المنازل الناتج عن تدمير المدينة في الحرب العالمية الثانية. صارت هذه الهضبة تجسيدا لمعنى الحضارة بالنسبة لي.

كنت أبحث عن تعريف جديد لمعنى الحضارة، لأن تعريف «ول ديورانت» مؤلف «قصة الحضارة» لم يكفني، حيث إنه يربط الحضارة بالمدنية، وبالتالي بالتقدم التقني والعلمي. وهو تعريف أقرب إلى الكلمة العربية التي تعني «الإقامة في الحضر» أو التمدن. في حين يرى أرسطو أن الحضارة هي أي شيء لم تخلقه الطبيعة، أي كل شيء خلقه الإنسان بيديه سواء إيجابياً أم سلبياً. وقد وهبتني هضبة القرية الأولمبية بميونيخ تعريفا جديدا وخاصا جدا؛ وهو أن الحضارة هي قدرة الشعوب على



خلق شيء جميل من أنقاض شيء قبيح والقدرة على عقلنة التاريخ. كان بإمكان الألمان أن يتباكوا على أطلال مدن ميونيخ ودريسدن وهامبورج وبرلين التي دمرتها الحرب، وأن يصبوا لعناتهم على الحلفاء، ولكنهم أدركوا سريعاً أن البكاء والعداء لا يفيدان، ففتشوا عن أسباب مأساتهم الحقيقية ثم شمروا عن سواعدهم وأعادوا بناء دولتهم في غضون سنوات قليلة حتى صار اقتصادهم أقوى من اقتصاد فرنسا وإنجلترا اللتين انتصرتا على ألمانيا في الحرب.

أعلم أن تشبيه ألمانيا بالعالم الإسلامي ربما يستفز الكثيرين وقد يجلب عليّ الاتهام المعهود بأني أتغزل في الغرب وأُبهر به. ولعلي أهدئ من روع القارئ، حين أقول إني لا أرى الغرب كمجتمع مثالي، ولدي انتقادات كثيرة للثقافة الغربية أدونها حين أكتب باللغة الألمانية، ولكن ليس هذا موضوعنا هنا.

فلننسَ ألمانيا والغرب إذن.. ولنذهب إلى تايوان، وبالتحديد إلى الجامعة التايوانية. بنى اليابانيون هذه الجامعة عام 1928 حين كانوا يحتلون تايوان، وكانت هذه هي الحسنة الوحيدة التي فعلها الاحتلال الياباني، فلم تمض سنوات حتى ارتكب اليابانيون أفظع المجازر والجرائم وتركوا تايوان خاوية على عروشها. وعلى عكس ألمانيا واليابان، فإن تايوان لم تتلق أية معونات من الغرب لإعادة بناء بلدها بعد انتهاء الحرب، بل دخلت في صراع جديد مع قوة عظمى جديدة هي الصين حول استقلالها. ومع ذلك تمكن التايوانيون من خلق مجتمع مدني ديمقراطي له اليوم مكانته في مجال الاقتصاد. وكان التعليم هو العمود الفقري لإعادة بناء هذا البلد. لم يدمر التايوانيون الجامعة



اليابانية انتقاما من وحشية اليابان في الحرب؛ بل طوروها حتى صارت اليوم على قائمة أفضل جامعات العالم، بل وصارت تتفوق على كل جامعات اليابان. وهنا تكمن مشكلة العالم الإسلامي في التعامل مع التاريخ. فليست لدى المسلمين نظرة براجماتية عملية في التعامل مع جروح الماضي، وإنما تغلب عليهم النظرة العاطفية المتشنجة التي تميل للمغالاة والتهويل.

قبل عدة أعوام نشر الكاتب والروائي حمدي أبو جليل مقالاً بعنوان «دعوة للاستسلام» لام فيها على العرب ثقافة المقاومة التي لم تحل قضية واحدة من قضاياهم بل زادتها تعقيدا. واقترح أبو جليل على العرب، بأسلوبه الساخر المعهود، الاستسلام للغرب على غرار ألمانيا واليابان، لعل وعسى يقف العرب على أقدامهم من جديد كما حدث لألمانيا واليابان بعد تدميرهما في الحرب العالمية الثانية. ولكن الاتهامات انهالت على أبو جليل تصفه بالانهزامية والتخاذل. وكانت معظم الاتهامات من بين صفوف المثقفين والعلمانيين الذين رفضوا تشبيه العالم العربي باليابان وألمانيا؛ لأن هذين البلدين هما اللذان بدآ بالعدوان على الحلفاء. بل شبه أحد منتقدي أبو جليل العالم العربي بفرنسا أثناء الحرب والتي قاومت الاحتلال النازي لأراضيها بضراوة فامتدحها الكثيرون لذلك.

القضية - كما أرى - ليست دوافع المقاومة ولكن جدواها وإستراتيجيتها. فإذا كانت المقاومة تجلب الحقوق المسلوبة وتطور المجتمعات فلا بأس بها. ولكن أن تصير المقاومة هدفاً في حد ذاتها، وأن تصير أبدية بلا نهاية، فهذا هو المرفوض. إن حقن الأطفال في



المدارس والمصلين في المساجد بكراهية عدو لا تطاله أيديهم تسلب مجتمعاتنا طاقات نحتاجها للتغيير، وتحول انتباهنا عن قضايا أخرى أخطر وأهم. الهضبة الأولمبية والجامعة التايوانية مجرد مثالين لما يجب أن يحدث في عالمنا العربي والإسلامي، وهو نزع فتيل ديناميت التاريخ والتحرر من أعباء الماضي حتى نسير للأمام.

من يلقِ نظرة على كتاب مادة التاريخ التي يتم تدريسها لطلاب الثانوية العامة في مصر سيكتشف بسهولة تناقضات الأمة الإسلامية المعاصرة. في حين يتم النظر إلى الذات ككيان كامل وعظيم، يتم تصوير «الآخرين» كعدوانيين ولا أخلاقيين. كتاب مادة التاريخ المدرسي أشبه بقصيدة عربية قديمة تبدأ بالبكاء على الأطلال ثم بوصف محاسن الحبيبة ثم مدح قبيلة الشاعر وذم أعدائها. الجزء الأول من كتاب مادة التاريخ المدرسي يعالج عظمة العرب وما حققوه فى مجالات العلم والفلسفة والطب منذ مئات السنين. أما الجزء الثاني فيعالج الأخطار التي هددت الحضارة الإسلامية من الحروب الصليبية والاستعمار وإسرائيل. العربي في هذا الكتاب دائماً مسالم وخلوق، في حين أن الآخر الغربى عدوانى ومتعجرف.

فى فصل الحروب الصليبية نقرأ وصفا وكأنه مشهد من فيلم رعب يسرد فيه الكاتب كيف اقتحم الصليبيون المسجد الأقصى وقتلوا في ساحته سبعين ألف مسلم رجالاً ونساءً وأطفالاً حتى صار الدم «للركب». بغض النظر عن أن ساحة الأقصى لا تتسع لأكثر من عشرة آلاف مسلم، وأيضا بغض النظر عن أن جرائم الصليبيين اعترف بها كتاب التاريخ الأوروبي أنفسهم، فإن هذه الطريقة لعرض التاريخ لا تساعد الطلاب



على فهم ما حدث؛ بل تحرك بداخلهم مشاعر البغض والكراهية. ومن الطريف في الأمر أن كلمة «الصليبيين» لم تكن موجودة أيام الحروب «الصليبية»، فكان المسلمون يطلقون عليهم آنذاك اسم «الفرنجة»، وهو مصطلح عرقي وليس دينيا. أما في العصر الحديث فيحاول المسلمون أن يصبغوا الصراع بصبغة دينية، وهو ما يفعله الغرب أيضا، مما يشعل نيران صراع الحضارات أكثر وأكثر.

وفى الفصل التالي يصف الكتاب مشهداً شبيهاً حين اقتحم جنود نابليون الجامع الأزهر ودخلوه بخيولهم. وهكذا تترسخ في أذهان الطلاب أن الغربي دائما رجل يكره المسلمين ويريد قتلهم وتدنيس مقدساتهم. وفى حين يخصص الكتاب ثلاثا وخمسين صفحة للحروب الصليبية والاستعمار، لا نقرأ فيه سوى صفحة ونصف الصفحة فقط عن غزو التتار وتدمير بغداد عام 1258 م، على الرغم من أن الهجوم المغولي كان له أثر أكبر على نهاية العصر الذهبي الإسلامي. فقد دمر المغول المكتبات ونسفوا الكتب واختطفوا أمهر الحرفيين إلى آسيا الوسطى، مما عجل بموت العلوم وبتفشي التخلف. ولكننا لا نقرأ شيئا من هذا في كتاب مادة التاريخ الرسمي، لأن التتار لا وجود لهم اليوم كقوة نكرهها ونلوم عليها تأخرنا وقلة حيلتنا.

هناك أيضا شيء آخر لافت للنظر في كتاب مادة التاريخ؛ وهو أن هناك فجوة غير مشروحة في الكتاب. حيث ينتهي الفصل السادس بآخر الحملات الصليبية عام 1291م ويبدأ الفصل السابع بالحملة الفرنسية على مصر عام 1798. أي أن هناك أكثر من خمسة قرون بلا عدوان ولا احتلال غربي، فأين كان العالم الإسلامي في هذه الفترة؟ ولماذا لم



يستغل هذه الفترة في تحسين حاله بنفسه؟ أم أنه لا وجود لنا ولا قيمة دون العدو الذي يتربص بنا الدوائر؟ ولماذا نسمي احتلال المسلمين الأندلس وصقلية والقسطنطينية فتحاً، في حين نسمى احتلال الغرب لنا عدواناً غاشماً؟

ويعالج الفصل الأخير من الكتاب الصراع العربي - الإسرائيلي فيبدأ بوصف يهود أوروبا كشعب خبيث عاش في «جيتو» وجمع أموالاً طائلة ثم أسس الصهيونية التي احتلت فلسطين فيما بعد. لا شيء عن المحرقة واضطهاد اليهود ولا عن إنجازاتهم في مجال العلوم في أوروبا، ولا عن اليهود المصريين الذين عاشوا قرونا في مصر وقدموا لها الكثير في مجالات الفن والثقافة. كل شيء مما قد يؤدى إلى تعاطف أو تفهم لليهود حُذف من كتاب مادة التاريخ حتى لا تضطرب الصورة التي يريد كاتب الكتاب أن يغرسها في ذهن الطالب، وهى أن الآخر شرير دائماً ونحن الضحايا دائماً.

نظرة داخل كتاب مادة التاريخ اليمني أو السوري أو السعودي سوف تصل لنفس النتيجة: الآخرون هم السبب. الغرب هو الشيطان الأكبر. العجيب في الأمر أن معظم الحكام العرب حلفاء أقوياء للغرب يحافظون على مصالحه ويدينون له بالولاء ويتلقون منه الأسلحة والمعونات. ومع ذلك تحرص الأنظمة المستبدة على تصوير الغرب على أنه سبب كل بلاء في بلادنا، كما يتم اتهام كل من ينتقد النظام أو يحاول الإصلاح بأنه جاسوس أو عميل غربي. الكتب المدرسية العربية تركز على خطايا الغرب لا على خطايانا نحن، ولا تشرح للطالب تاريخ الديمقراطية وفكر الحداثة، لأنها تريد أن تخلق حاجزاً بين تلك الأفكار والطلاب حتى لا



يصير الغرب مثلاً أعلى لهم. الكتاب المدرسي يطلب من الطالب الولاء لزعيم لا إعمال العقل والتفكير الحر. التاريخ الرسمي يشغل الطالب بمحاربة طواحين الهواء حتى لا يلتفت لمشكلات مجتمعه الحقيقية ولا يثور على أوضاعه.

ومع ذلك فقد تدخل الغرب بعد أحداث سبتمبر وطالب حلفاءه في الدول العربية بتنقية الكتب المدرسية من كراهية الغرب، وقد وضع ذلك الأنظمة العربية في حرج شديد. فطوروا المناهج بطريقة متعجلة وعشوائية، فحذفوا بعض الأجزاء وأضافوا أخرى تحث على التعايش مع الآخر والسلام، في حين احتفظوا ببعض الأجزاء التي لا تزال تصفه بالعدو الغاشم. وهكذا أصبحت المناهج «المطورة» متناقضة جداً وتشتت الطالب.

فبعد أن أعلن السفير السعودي في واشنطن خلو المناهج السعودية من الكراهية، فحصت جريدة الـ«واشنطن بوست» الكتب السعودية في تقرير نشرته في مارس 2006 أكدت فيه أن المناهج لا تزال عدوانية بل وخطيرة.

وطرح التقرير الأمثلة الآتية من كتب التربية الدينية (الأمثلة المقتبسة مترجمة عن التقرير وليست منقولة عن الكتب الأصلية):

من كتاب الصف الأول: «أكمل الجملة بواحدة من الكلمتين الآتيتين (الإسلام – النار): كل دين غير ----- هو باطل، وكل ما عدا المسلمين سيدخلون -----».

ومن كتاب الصف الرابع الذي تم إصلاحه يقتبس التقرير: «الإيمان



الحقيقي يعنى الغلظة على الكفار والمشركين (....) ﴿ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر لا يتخذ أعداء الله أولياءً﴾، (هنا استناد إلى آية قرآنية من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾).

ومن الكتاب نفسه يقتبس التقرير: «القردة هم اليهود والخنازير هم النصارى».

ومن كتاب الصف الحادي عشر: «الجهاد هو محاربة الكفر والقهر والظلم. هذا الدين جاء بالجهاد وارتفع براية الجهاد».

من الطريف أن يعلم النظام السعودي طلابه أن الجهاد هو محاربة القهر والظلم. فلو فهم من كتب هذه الكلمات مغزى هذه المقولة لما كتبها، لأنه هكذا ينادي بالثورة على النظام السعودي نفسه الذي يعد من أكثر الأنظمة قهراً وظلماً، خصوصاً للنساء ولأصحاب الفكر الحر.

الكتاب المدرسي يمثل مؤشراً واضحاً لحالة الفكر في مجتمع ما وكيفية رؤيته نفسه، فهو كحوض يتجمع فيه ما يعرفه المجتمع وما يحبه وما يكرهه، ثم تتم تصفية هذا الحوض على يد السياسات التعليمية التي تقرر ما تريد أن تلقنه للطلاب وما تريد إخفاءه عنهم. ثم يأتي المدرس الذي يتأثر ببيئته الاجتماعية وما يسمعه في المسجد وعلى الفضائيات فيكمل الصورة. التعليم العربي مسموم بأمراض المجتمع الفكرية، فأي أداة يريد العالم العربي استخدامها للخروج من ورطته؟



أصحاب الكهف..

أو مشكلة من لا يرى إلا ظله

قصة الكهف التي يرويها أفلاطون في الفصل السابع من كتابه «السياسة» تصف تماماً حالة الفكر في العالم الإسلامي منذ قرون: مجموعة من البشر محبوسون في كهف ومكبلون بقيود أمام حائط الكهف ووراءهم ضوء خافت فلا يرون إلا ظلالهم على الحائط. وإذا تحرك شيء خلفهم أو إذا تكلم أحد يعيد الحائط صدى الصوت فيبدو وكأن الظلال تتكلم إليهم. القيود تمنع أصحاب الكهف من أن يحركوا رؤوسهم فلا يرون من العالم إلا ما يمليه عليهم الحائط الذي أمامهم. والسؤال الذي أراد أفلاطون طرحه في هذه القصة هو: ماذا سيحدث لو أن أصحاب الكهف تمكنوا من فك قيودهم واستداروا؟ حينها سيبهرهم الضوء ولن يروا الأشياء بوضوح لأنهم اعتادوا على لغة الظل. وستكون النتيجة أنهم سيعودون إلى الحائط طائعين ويواصلون مراقبة الظل كي يفهموا ما يدور حولهم.

عاش المسلمون لقرون طويلة في عزلة عن باقي العالم لا يرون إلا ظلهم على الحائط، ومع ذلك فقد كانوا يعتقدون أنهم خير أمة أخرجت للناس، حتى جاء الأوروبي المتفوق عليهم مادياً وعلمياً ففتح كهفهم



عنوة وواجههم بحقيقة العصر الحديث. لقد كان لقاءً غير متكافئ عندما رسى أسطول نابليون عند أبو قير. يحلو لنا أن نصور هذا اللقاء كغزو غاشم قابله المصريون بمقاومة شرسة لمدة ثلاثة أعوام حتى رحلت الحملة الفرنسية عن مصر. الحقيقة هي أن تلك المقاومة مجرد أسطورة، فقد اشترى نابليون بعض شيوخ الأزهر برواتب شهرية فوصفوه بأنه من أولي الأمر وأن طاعته من طاعة الله. أما ثورة المصريين فلم تأتِ إلا عندما رفع الفرنسيون الضرائب على الفلاحين والحرفيين، وقد أسهم رجال الأزهر في تلك الثورة، ولكن بعض المصادر الفرنسية تقول إن بعضهم عاد للتعاون مع الفرنسيين بعد ذلك. ولم يكن الدين الإسلامي ولا الأزهر يلعبان دوراً يذكر في تلك الفترة سوى تحفيظ القرآن والدعوة للحاكم من على منابر المساجد سواء كان من الأتراك أو المماليك أو الفرنسيين. انتشرت الخرافات والخزعبلات وكاد الدين يختفي تماما لولا مجيء حملة نابليون. ويبدو أن مجيء العدو الأوروبي هو الذي يذكر المسلمين دائماً بأن لهم دينا، فانتعاش الفكر الديني يأتي دائماً مع ظهور الغازي القادم من الجانب الآخر من البحر المتوسط: كان الأمر هكذا مع مجيء الفرنجة والاستعمار ومع احتلال فلسطين. فتُرى هل سيبقى الدين لو صرنا بلا أعداء؟ هل ستبقى الهوية؟

لم يكن مجيء الأوروبي الغازي كقُبلة الأمير للجميلة النائمة التي أيقظتها من سُباتها الطويل، ولكنه كان ركلة في مؤخرتها أثارت غضبها فشرعت في الصراخ. وظلت جميلة الجميلات تصرخ وتصرخ حتى يومنا هذا. لم يفسر المصريون مجيء الفرنسيين كبداية لعصرٍ جديد بل كصفحة جديدة من صفحات صراع الشرق والغرب. سبَّب لقاء



العرب بالأوروبيين المتفوقين «جُرحاً نرجسياً» كما يسميه الفيلسوف السوري جورج طرابيشي. وظل جرح الهزيمة هذا يؤرق العرب ويعكر عليهم صفو خيالاتهم بأنهم خيرة البشر. ومن ناحية أخرى كان مجيء الأوروبي دائماً يذكر الإصلاحيين في بلادنا بضرورة التغيير ويذكر الأصوليين بضرورة التزمّت ومقاومة التجديد، وبذلك تكون المحصلة في النهاية صفر أو تحت الصفر. الأصوليون ينتصرون في النهاية لأنهم ليسوا بحاجة لإقناع غالبية الناس بوجهة نظرهم فهم يستخدمون اللغة التي يفهمها الجميع ويعودون إلى النصوص التي لا يستطيع أحد أن ينكرها. كل ما عليهم أن يفعلوه هو أن يعودوا إلى المربع الأول من التاريخ الإسلامي، إلى دولة الرسول وقوانينها، إلى الشريعة وأحكامها. مجيء الآخر كان دائما يستفز بعض المسلمين لمغادرة الكهف، ولكنه كان يستفز معظمهم للتشبث بالمغارة وظلالها. كان شعورهم بالضعف يولد الخجل، والخجل يولد الخوف، والخوف يقوي التمسك بالدين. وهكذا تتحول حالة الطوارئ وقلة الحيلة إلى رسالة سامية وعمل نبيل.

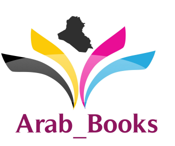
في كتابه «الوجود والعدم» يعطي جان بول سارتر مثالاً آخر لكيفية ميلاد الخجل. فهو يحكي قصة رجل يراقب مجموعة من الناس من خلال ثقب مفتاح أحد الأبواب. وطالما كان يراقب الآخرين لم يكن يشعر أنه يرتكب خطأً، بل إنه لم يكن حتى يشعر بذاته. ولكن حينما جاء شخص آخر من خلفه وأمسك به متلبساً بفعلته أحس بذاته وشعر بالخجل. وقد أمسك بنا الأوروبيون ونحن متلبسون بالتخلف، فتشنجنا ولم نقو على الاعتراف بالحقيقة. الآخرون دائماً هم الذين يولدون شعورنا بالخزي.. نظرات الآخرين هي الجحيم بعينه.

نظرات جنود نابليون وجنود الإنجليز إلى فلاحي النيل ونظرات جنود



الفرنسيين إلى أبناء المغرب العربي كانت تملؤهم بالخجل والغضب. فتلك النظرات كانت دائماً تشككهم في أسطورة أنهم خيرة البشر. فكان المسلمون يحاولون تعويض عقدة النقص هذه بشعورهم بالتفوق الأخلاقي، فكانوا يرون أنفسهم مؤمنين في حين أن الأوروبي كافر يأكل ويتمتع كما تتمتع الأنعام. ولا تزال نظرة الغربي تثير غضب المسلم في كل أنحاء العالم الإسلامي. وبدلاً من أن يرى المسلمون أن الأوروبيين بشر مثلهم لهم عيوبهم ومميزاتهم ومخاوفهم وغباؤهم، فإنهم يفضلون أن يروه تجسيداً للشر ذاته لا يأتِ منه خير أبداً. فهذه النظرة توفر عليهم التفكير في أخطائهم ومشكلاتهم وتجعلهم يستدفئون بدور الضحية فيجعلون الآخر دائماً هو المسؤول الوحيد عن كل إخفاقاتهم وكوارثهم.

يختتم أفلاطون قصة أصحاب الكهف بسؤال: ماذا سيحدث لو فُتح الكهف بالعنف وتحرر أحد أصحابه وخرج للنور. في البداية سيخاف من الشمس وسيحمى نفسه من نورها، ولكنه مع الوقت سيعتاد عليها وعلى رؤية الأشياء كما هي. ولو عاد للكهف مرة أخرى ليشرح لإخوته أن العالم شيء آخر غير الظلال التي يرونها على الحائط لن يصدقه أحد، بل سيتهمونه بأن عينه أصابها العمى وقد ينتهي بهم المطاف إلى أن يقتلوه لأنه يعكر عليهم صفو عزلتهم ويشكك في عظمة كهفهم. من الآن فصاعدا سيقتلون كل من يحاول أن ينزع عنهم قيودهم ويأخذهم إلى النور. وهذا بالضبط ما يسميه الفيلسوف الألماني «إيريش فروم» «الخوف من الحرية». فالإنسان بطبيعته لا يسعى للمعرفة والحرية في المقام الأول بل للأمان. وهو يجد هذا الأمان في الدين والقبيلة وما تعارف عليه من حوله أنه الحقيقة. والقليلون جداً هم من يجرؤون على

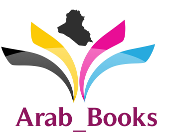


نزع القيود عن أنفسهم وعن عقولهم لأن ذلك يجعلهم يتخذون قراراتهم بأنفسهم ويتحملون عواقبها. الحرية قد تؤدي الوحدة والعزلة، لذلك يخافها الكثيرون ويفضلون حياة الكهوف.

وحياة الكهوف تولد تعظيم الذات كما تولد الـ«بارانويا» والشك القهري والقلق من كل ما هو غريب أو جديد. وهذا هو حالنا اليوم في معظم البلدان الإسلامية: نختبئ في كهوف الماضي وننظر إلي كل نقد خارجي علي أنه إعلان حرب ولكل نقد داخلي علي أنه خيانة أو كفر. وكلما كان المجتمع مغلقاً، زادت نظرته إلى العالم الخارجي ككيان عدائي وزاد الضغط على أبناء المجتمع ليظهروا ولاءهم له وتضامنهم معه. ولو عاد أحد أبناء الكهف من الخارج ليفتح عيون إخوته إلى النور تهموه بالعمالة للغرب وببيع قضايا بلاده. هكذا يتم وأد أفكار التحرر في المهد لأن الجميع مشغولون بكراهية العدو الخارجي. وكلما زاد تأثير العالم الخارجي على أصحاب الكهف زاد ضغطهم على بعضهم، فتنتشر ثقافة المراقبة وثقافة الصمت. كل ذلك يؤدى إلى حالة أطلق عليها «زنا محارم ثقافي» حيث تسيطر الأحادية والتعصب على الفكر. والمعروف عن زنا المحارم أنه ينتج أطفالا مشوهين ومرضى.

وقد خاطر الكثيرون بحياتهم حين حاولوا كسر هذه الحالة من العزلة الحضارية والفكرية في بلادنا بداية بابن عربي وابن رشد وانتهاءً بسعد الدين إبراهيم ومحمود محمد طه وفرج فودة ونصر حامد أبو زيد. ولكن مصلحين كثيرين ممن غادروا الكهف ثائرين عادوا إليه مرة أخرى طائعين ولبسوا الأغلال بأنفسهم وبدأوا في النظر إلى ظلالهم، ثم أطلقوا على ذلك: توبة!




Arab_Books

متى بدأ الخلل؟

أو الوداع الطويل للحضارة الإسلامية

يمكن القول إن الحضارة الإسلامية كان لها ميلاد يسير وطفولة مضطربة وفترة شباب قصيرة وناجحة وفترة شيخوخة طويلة ومؤسفة. يصف ابن خلدون العرب بالبداوة وعدم القدرة على إنتاج الفنون، وأن الإسلام هو الذي خلق منهم أمة حضارية تفوقت على باقي الأمم. وهذه أيضاً حجة يستخدمها الكثير من الإسلاميين الذين يرفضون فصل الدين عن السياسة. فيقولون إن أوروبا تخلصت من سلطة الكنيسة في العصور الوسطى لأن المسيحية كانت ضد العلم، أما الإسلام فهو الذي جعل من رعاة الإبل أمة قادت العالم في مجالات العلوم. ولكنني أميل إلى التشكيك في هذه النظرية، فلم يكن الإسلام وحده السبب في تطور العلوم والفلسفة في المناطق التي خضعت للحكم الإسلامي، وإنما جهود من اعتنقوا الإسلام من الفرس والسريان واليهود وما أضافوه من حضاراتهم القديمة إلى الحضارة الإسلامية. والدليل على أن الإسلام وحده ليس صانع تلك الحضارة هو أن مراكز العلوم في صدر الإسلام وفي عصره الذهبي لم تكن مكة والمدينة، حيث ولد الإسلام، ولكن دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وأصفهان وبخارى وسمرقند، وكلها



مدن عاشت فيها حضارات قديمة استفاد منها المسلمون فيما بعد. وقد انتشر الإسلام بسرعة فائقة لأنه ملأ فراغاً حضاريا خلفه الفرس والرومان اللذان استهلكا بعضهما في حروب طويلة.

وكان المسلمون الأوائل يقلدون أساليب الروم العسكرية ويستخدمون نظام الدواوين الإداري الذي ابتكره الفرس. وصفوة العلماء في العصر الذهبي مثل الخوارزمي والفارابي والرازي وابن سينا لم يكونوا عرباً بل فرسا. حتى ابن رشد كان أمازيغيا وليس عربي العرق. وقد ساعد الحضارة الإسلامية في تلك الفترة انفتاحها على العالم وتعاون المسلمين مع المسيحيين واليهود والفرس الذين ترجموا العديد من الكتب للمسلمين وأسهموا إسهاماً كبيراً في بناء تلك الحضارة. وكان علماء المسلمين يطلقون على فلاسفة اليونان لقب «القدماء»؛ وهذا يوضح أنهم كانوا ينظرون إليهم كأساتذة لا كغرباء أو كفار. حتى في تفسير القرآن كان المسلمون يستعينون بعلماء اليهود، فالقرآن لا يحكي قصص الأنبياء من أولها لآخرها كما تفعل التوراة، ولكن يتعرض فقط لمواقف منها، وهكذا أسهم اليهود في تكملة ما لم يكن يعرفه المسلمون عن الأنبياء وقصص الأولين.

وكانت عبقرية الإسلام هي دمج الفكر التوحيدي بالفكر التشريعي اليهودي بطقوس عربية قديمة مثل طقوس الحج في خليط ناسب الكثيرين. وعلى الرغم من أن مفهوم الأمة كان مبنياً على العقيدة لا العرق، فقد ظل مفهوم القبيلة والعصبية قائماً وأسهم في انتشار الإسلام في شبه الجزيرة بسرعة شديدة. ثم جاء مفهوم الجهاد كحالة دائمة لا تنتهي، فكان من يعتنق الإسلام من الشعوب الأخرى يتفانى في الجهاد ليثبت أنه لا يقل عن المسلمين العرب.



والمبادئ التي ساعدت على انتشار الإسلام تبدو وكأنها ذات المبادئ التي تقف اليوم حاجزاً بين المسلمين والتطور في العصر الحديث، لأنه لم يتم إعادة التفاوض حول تلك المبادئ أو إعادة صياغتها كي تناسب روح العصر. ففكرة أن الله هو المشرِّع للدولة وأن الجهاد حالة دائمة تحولان دون خلق مجتمع مدني ودون التعاون مع غير المسلمين. كما أن العصبية القبلية لا تزال تسيطر على فهمنا للسلطة والشرف والكرامة ودور المرأة في المجتمع.. مما يعوق المجتمع في جهوده نحو الانفتاح.

حتى الآن لا توجد مراجعة شاملة للتاريخ الإسلامي لتنقيته من الأساطير والخزعبلات، فترانا نقبل كل ما نقله ابن إسحق وابن كثير وغيرهما وكأنه قرآن مُنزل. فنقرأ على سبيل المثال أن الرسول أرسل رسلاً إلى هرقل الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر بكتابٍ جاء فيه «اسلم تسلم» وهو شيء لا يصدقه عقل، إذ كيف يدعو رجل عربي له أتباع قليلون زعماء العالم إلى دين لم يسمعوا عنه قط. فلنتخيل أن أحد زعماء البدو في ليبيا اليوم يرسل برسالة إلى رؤساء الولايات المتحدة وروسيا والصين يدعوهم فيها إلى دين جديد، هل سيأخذه أحد مأخذ الجد؟ وللعلم فإنه لا توجد أية أدلة تاريخية غير إسلامية أن أحداً خارج الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن السابع سمع بنبي اسمه محمد أو بدين اسمه الإسلام. فمن الواضح جداً أن قادة المسلمين بعد وفاة الرسول هم الذين اخترعوا هذه القصة ليبرروا غزواتهم على أراضي الفرس والروم ومصر. وبخاصة في العصر الأموي نجد أن كماً هائلاً من الأحاديث تم «إخراجه» لتعطي الحاكم سلطة مطلقة وتبين فضل بني أمية على باقي القبائل.



وكلما ابتعد المسلمون عن زمن الرسول، ازداد شوقهم لكلام النبي ونصائحه فزادت الأحاديث الموضوعة وزاد تشبث المسلمين بحروف القرآن. فبينما دار في القرن الثامن نقاش بين المعتزلة وأهل السنة حول طبيعة القرآن هل هو مخلوق أم أزلي، نجد أنه بدءاً من القرن التاسع أصبح القرآن لا مساس به ولا جدل حوله. ومع ازدياد رقعة الأراضي الإسلامية المفتوحة زاد أيضاً النقاش مع أهل الذمة من المسيحيين واليهود حول طبيعة المسيح وقصص الأنبياء، وقد أسهمت تلك المجادلات في نشأة علم الكلام الذي بُنيت على أساسه الفلسفة والفقه الإسلاميين.

رأى المسلمون كيف يقدس النصارى شخص المسيح ويحكون عن معجزاته وقصة موته كشهيد، فكان من الصعب مقارنة الرسول محمد به، حيث مات الرسول ميتة طبيعية متأثراً بالحمى ولم يثبت أنه في حياته أحيا الموتى أو جاء بمعجزات، لذا فقد بدأ المسلمون في جعل القرآن نظيراً للمسيح ككلمة الله ومعجزته. وكانت هذه النظرة تمنع أي نظرة تاريخية تحليلية لنص القرآن مما أغلق الباب أمام مسائل فقهية وفلسفية كثيرة مرتبطة بتفسير هذا النص.

تعامل المسلمون بذكاء شديد مع غير المسلمين في المناطق التي خضعت للحكم الإسلامي، فلم يغصبوهم على اعتناق الإسلام ما داموا يدفعون الجزية. فقد ظل على سبيل المثال أكثر من 60% من سكان مصر وسوريا مسيحيين حتى مجيء حملات الفرنجة في نهاية القرن الحادي عشر. وقد غيرت الحملات الصليبية من تفكير المسلمين بشكل جذري، فبعد أن كانوا يركزون على العلوم الدنيوية مثل الطب والرياضيات والكيمياء، صاروا يركزون على العلوم الدينية وعلى مفهوم



الجهاد. كما بدأوا في تضييق الخناق على أهل الذمة والشك بولائهم واتهموا بعضهم بالتعاون مع الفرنجة. وقد شهدت تلك الفترة أكبر موجة من أسلمة أهل الذمة الذين أرادوا بإشهار إسلامهم إظهار ولائهم لأولي الأمر من المسلمين من ناحية وللهروب من الضرائب الباهظة على غير المسلمين من ناحية أخرى. إذن فإنه من ضرب الأساطير أن نعتقد أن ملايين البشر اعتنقت الإسلام في آن واحد فقط لأنهم اقتنعوا بمبادئه السمحة. فالقصة كانت دائماً تبدأ باعتناق أحد القساوسة أو زعيم قبيلة للإسلام فيلحق به كل أتباعه وأقاربه. وبدأ المسلمون في النظر إلى من بقي من اليهود والمسيحيين على دينه بعين القلق والترقب، فقل التعاون العلمي والثقافي بين الجانبين مما أثر على تطور العلوم. وقد أثرت حالة من البارانويا على الفكر الإسلامي انتهت بغلق باب الاجتهاد والاعتقاد بأن كل المعرفة موجودة في القرآن فلا حاجة للعلوم الدنيوية.

تفتت العالم الإسلامي إلى إمارات ودويلات من أيوبيين وفاطميين وسلاجقة وصفويين ومماليك كانوا يحاربون بعضهم بعضا، بل وتعاون بعضهم مع الصليبيين ضد بعض. وكان كل حاكم إمارة يحمي نفسه بمجموعة من المرتزقة المماليك يغدق عليهم العطاء، مما أسهم في نشأة النظام الإقطاعي الذي ضاعف الفقر بين الفلاحين. وبعد فترة، وبسبب الحروب المتتالية، خلت خزائن تلك الإمارات من الأموال فكان على الحكام اختراع وسيلة أخرى لإرضاء فرسانهم المماليك، فابتكر الفاطميون في مصر نظام الأوقاف بوضع حي سكني كامل بمساجده ومدارسه تحت تصرف أحد الفرسان. وقد كان نظام الأوقاف هو بداية تدمير التعليم في العالم الإسلامي، إذ كان القائد العسكري لا



يهتم بتدريس العلوم الدنيوية، فأمر كل قائد المدارس بتحفيظ القرآن فقط، وأجبر المدرسين على الإشادة بجهاده والتسبيح بحمده. وكانت المدرسة التي ترفض ذلك يتم إغلاقها فوراً. ومنذ ذلك الوقت يعزف التعليم في معظم البلدان الإسلامية نفس النغمة: يطالب الطلاب بالولاء للحاكم ويبتعد عن العلوم الدنيوية.

وكان هجوم التتار في القرن الثالث عشر بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. فقد أدى تدمير المكتبات ونسف الكتب في بغداد واختطاف أمهر حرفييها إلى آسيا الوسطى.. إلى خلل كبير في الكيان الثقافي والاقتصادي الإسلامي. وقد أدى ذلك إلى انتعاش الفكر السلفي الذي أرجأ أسباب الهزيمة إلى حالة الترف في بغداد وانشغال المسلمين بالعلوم الدنيوية وبعدهم عن القرآن. ولكن من الخطأ أن نفسر سقوط العصر الذهبي الإسلامي فقط بالحملات الصليبية وهجوم التتار، فأي حضارة تسقط تدمر نفسها من الداخل أولاً قبل أن يهاجمها الغرباء من الخارج. وتاريخ العالم كله هو تاريخ إمبراطوريات كان القوي منها يهجم على من شاخ وضعف ويجهز عليه. عندما كان المسلمون أقوياء هجموا على الفرس والروم واحتلوا أراضيهم، وعندما ضعف المسلمون هجم عليهم التتار والقوى الاستعمارية. إذن فمن غير المنصف أن نجعل الآخرين دائماً المسئولين عن سقوطنا، بل علينا أن نتساءل عن أسباب ضعفنا الحقيقية التي تجعلنا دائماً فريسة سهلة للآخرين.

نفس الشيء ينطبق على سقوط الأندلس. فبينما ننظر لاحتلال المسلمين الأندلس كفتح مبارك، نرى استعادة الأندلس على أيدي المسيحيين فرديناند وإيزابيلا عملاً إجراميا. ولو قرأنا تاريخ الأندلس



جيداً لعرفنا أن سقوط الأندلس بدأ قبل ثلاثة قرون من هجوم فرديناند وإيزابيلا عام 1492. بدأ سقوط الأندلس بهجرة الموحدين والمرابطين إليها من شمال إفريقيا، الذين جاءوا بفكر متعصب يختلف عن الفكر الأندلسي المتسامح. فبعدما كانت الأندلس مركزاً للعلوم والفلسفة تعاون فيه المسيحيون واليهود والمسلمون وأنتجوا حضارة فريدة من نوعها، جاء البربر بفكر أحادي يرى كل ما دون المسلمين على أنهم كفار يجب محاربتهم، وهكذا بدأ المسلمون في الهجوم على بعضهم فانقسمت الأندلس أيضاً إلى إمارات صغيرة تحارب بعضها بعضا. وكان هؤلاء المتزمتون هم الذين أحرقوا كتب العلامة ابن رشد وتسببوا في نفيه من قرطبة إلى مراكش. إذن فمن الخطأ أن نعتقد أن الأصولية الإسلامية ظاهرة حديثة ومؤقتة، فهذا الفكر الجامد موجود منذ نشأة الإسلام، وكانت لديه القدرة دائماً على الوقوف في وجه أي تيار للإصلاح: ابن حنبل في القرن التاسع، ابن تيمية في القرن الرابع عشر، محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر، أسامة بن لادن في القرن الحادي والعشرين.. هذا الفكر له الجذور نفسها وخارج من الروح نفسها، وإن تباينت أساليب التعبير عنه! أساس الأصولية هو الفكر الأحادي الذي يقسم العالم إلى عدو وصديق، مؤمن وكافر.

وبعد ستة أعوام من سقوط الأندلس اكتشف البحارة البرتغالي فاسكو داجاما طريق رأس الرجاء الصالح عام 1498 مما أدى إلى أن الشرق الأوسط فقد أهميته التجارية، فبعدها بدأت السفن التجارية تتجنب المنطقة العربية، وهكذا اختفت أيضاً الأفكار الجديدة وروح التغيير. عزلة كبيرة دخلها العالم العربي زادت حدتها بالغزو العثماني عام 1516.



أعلم أن الكثيرين يفضلون تسميته بالفتح العثماني الإسلامي، ولكن أي فتح هذا؟ ألم تكن مصر وسوريا وبلاد المغرب العربي مسلمة بالفعل حين هجم الأتراك عليها؟ ألم يكن ذلك احتلالاً واستعمارا مثلما فعلت فرنسا وإنجلترا؟ ألم يعش العرب أكثر من 400 سنة تحت وطأة الاحتلال التركي تدهور فيها التعليم والاقتصاد ودخل فيها العالم العربي طي النسيان؟ فلماذا إذن لا تتباكى كتب التاريخ المدرسية على تلك الحقبة؟ ألأن السلطان التركي كان يسمي نفسه خليفة المسلمين، أو لأن شيوخ الأزهر كانوا يدعون له من فوق المنابر؟!

وعندما حاول محمد علي باشا الانفصال عن الدولة العثمانية وتحديث مصر لم يجد خليفة المسلمين في إسطنبول أية مشكلة في التحالف مع الإنجليز لكسر شوكة محمد علي. وأيضا عندما حاول محمد على ضرب الحركة الوهابية في الحجاز وقف الإنجليز في وجهه وتحالفوا مع آل سعود؛ ذلك التحالف الذي لا يزال قائماً حتى اليوم.

وبينما شهد القرن الثامن عشر في أوروبا ثورة صناعية وعلمية وفلسفية لم يشهدها التاريخ من قبل، ظهر في الجزيرة العربية رجل يجسد حالة الجمود الفكري الذي وصل إليه المسلمون في ذلك الوقت، وهو محمد بن عبد الوهاب. ومن الطريف أن يسمى أنصار ابن عبد الوهاب فكره بـ«التجديد»، فأي تجديد هذا أن تهاجم أضرحة الأولياء وتفسر القرآن حرفياً؟ أليس هذا الفكر هو الأصولية بعينها؟ وهنا تكمن أكبر مشكلات الفكر العربي: لا بد أن نجدد مفهومنا للتجديد وأن نغير مفهومنا للتغيير أولاً، لأن هذا التغيير يقودنا في أغلب الأحيان جحور الماضي وكهف أفلاطون. فالتجديد لا يعني العودة إلى الجذور، إلى حيث بدأ كل شيء،



بل يعني فهم روح العصر والتعايش معها وإعادة التفاوض مع النصوص مهما كانت قدسيتها. أكبر دليل أن الفكر الإسلامي يعاني من مأساة كبيرة هو أن فكر محمد بن عبد الوهاب الساذج جداً لا يزال يلعب دوراً هاماً في العالم الإسلامي في القرن الحادي والعشرين. فبعدما أنجبت مصر مفكرين عباقرة من أمثال محمد عبده وعلي عبد الرازق وأحمد أمين وعباس العقاد وطه حسين ونصر حامد أبوزيد، نجد أن الفكر السلفي اليوم قد أخرسَ أصوات هؤلاء وكاد يحتكر ساحة الدعوة الإسلامية حتى في بلاد الغرب.

بعد احتلال فرنسا للجزائر، وإنجلترا لمصر، ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر بشائر القومية العربية. نظر الشيخ محمد عبده إلى دولة ألمانيا الحديثة التي أسسها بسمارك كمثل أعلى لدولة عربية إسلامية موحدة. وكان الفكر القومي الذي ولد في أوروبا مثلاً أعلى لحركتين جديدتين صارتا عدوين لدودين فيما بعد وحتى اليوم: القومية العربية والصهيونية. كلتا الحركتين نشأت تحت وطأة القهر الأوروبي الذي استعمر البلدان العربية في الشرق الأوسط واضطهد اليهود في أوروبا. كلتا الحركتين كانت متأثرة بالفكر الاشتراكي، وكلتاهما كانت تسعى لخلق وطن قومي لشعبها المقهور. فلماذا نجحت الصهيونية في تحقيق أهدافها بينما ظلت القومية العربية مجرد بقايا لفكرة جميلة؟

بينما بنت القومية العربية مشروعها على أساطير وشعارات، كانت الصهيونية تحسب خطواتها بتأنٍّ وذكاء. وفي حين التف العرب دائماً حول قائد ملهم مثل نصف إله، كانت الصهيونية منذ بدايتها حركة جماعية وديمقراطية. وقد نشأت أفكار الصهيونية من أفكار يهود متدينين مثل



«ناتان برنباوم» وآخرين علمانيين مثل «تيودور هيرتزل». وبغض النظر عن مجموعة صغيرة من اليهود الأرثوذكس، فإن معظم يهود أوروبا أجمعوا على التعاون من أجل خلق وطن قومي لهم. ففي المؤتمرات الصهيونية شارك طلاب وأساتذة وعلماء وصحفيون وعمال، رجالاً ونساءً. وعلى الجانب الآخر كان الرجال فقط يديرون دفة القومية في مصر وسوريا وحتى في تركيا وإيران.

وبينما ظلت القومية العربية محبوسة في حناجر الخطباء استخدمت الصهيونية أربع استراتيجيات متوازية للوصول لأهدافها: الصهيونية السياسية ركزت على التفاوض مع زعماء العالم وشرح قضية اليهود لهم. لم يتفاوض الصهاينة فقط مع زعماء النمسا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا، بل سافر «تيودور هيرتزل» إلى إسطنبول وحاول إقناع السلطان عبد الحميد بتخصيص قطعة أرض في فلسطين كوطن لليهود. ثم جاءت الصهيونية العملية التي نظمت الهجرة بصفة مستمرة إلى فلسطين وبنت هناك معسكرات العمل (الكيبوتس) لإدخال الأفكار الاشتراكية حيز التنفيذ. وفى تلك المعسكرات كان المهاجرون اليهود يزرعون الأرض ويشتغلون بالحرف اليدوية حتى ولو كانوا أساتذة جامعات، مما غرس بينهم روح التعاون والتواضع. ولكن هذا التواضع كان مقتصراً على تعامل اليهود مع بعضهم فقط. فقد اخترع هؤلاء المهاجرون مصطلح «أفودا إيفريت» أو «العمل اليهودي» الذي يحث اليهودي على عدم استئجار العرب للعمل، حيث كانت صورة العامل العربي أنه كسول ويفضل الجلوس في المقاهي ولا يعمل إلا بالأمر.

أما الصهيونية الثقافية فقد كانت معنية ببناء المدارس وتعليم اللغة



العبرية وأفكار حركة التنوير الأوروبية. فعلى الرغم من الاضطهاد الأوروبي لليهود لم يتخلَّ الصهاينة عن الفكر الأوروبي وحاولوا تصديره إلى فلسطين. أما الاستراتيجية الرابعة فكانت الصهيونية العسكرية حيث نظم المهاجرون اليهود عصابات مسلحة مثل «الهاجانا» التي كانت تعمل بتنسيق عالٍ جدا. ولكن عندما أعلن بن جوريون إقامة دولة إسرائيل سلمت جميع العصابات أسلحتها للدولة. وكان بن جوريون قد أمر بإغراق سفينة في البحر المتوسط كانت تحمل أسلحة لمناحم بيجن دون إذن من بن جوريون، على الرغم من حاجة إسرائيل لكل سلاح في وقت الحرب.

وعلى الرغم من الحروب المتتالية التي خاضتها إسرائيل فلم تخضع هذه الدولة أبداً لحكومة عسكرية بل صممت على تشكيل حكومات ديمقراطية، في حين كانت نفس الحروب هي ذريعة الحكام العرب في إسكات الأصوات المعارضة. مقولة عبد الناصر الشهيرة «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» هي أفضل مثال على ذلك.

هذا التحليل ليس مدحاً للصهيونية ولا تبريراً لاحتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية وسياسة التهجير، فالظلم ظلم مهما كان منسقاً. وإسرائيل طالما فوتت على نفسها الفرص لتحقيق تسوية سلمية مع الفلسطينيين وحل مشكلة اللاجئين وبخاصة بعد انتصارها في حرب 1967. ولكنها دخلت في دوامة البارانويا وأصرت على سياسة الاستيطان التي تجعل حل الدولتين يبدو مستحيلاً، وهذه السياسة هي التي ستتسبب في خنق إسرائيل نفسها من الداخل. ولكن ما أردت إيضاحه أن الدولة المدنية لا تقوم بالشعارات وحسن النوايا؛



ولكن بالتخطيط وبالفكر السليم وبإرادة فولاذية للشعب، وهنا تكمن مشكلتنا منذ قرون، حيث نسمح للتفكير العاطفي المندفع أن يتحكم فينا ويدخلنا في مأزق بعد الآخر، ثم ننتظر الحاكم المنقذ على شاكلة صلاح الدين وعبد الناصر والبرادعي.

وفي حين كان عبد الناصر لا يفوت فرصة ليتوعد إسرائيل بالفناء والإلقاء بها في البحر، كان الصهاينة يعملون بصمت ويبنون جيشهم، ثم هجموا على مصر ودمروا جيشها في ستة أيام دون إعلان حرب، واحتلوا بذلك القدس وغزة والضفة الغربية وسيناء والجولان. وقد أصابت هذه النكسة جيلاً كاملاً من العرب بالصدمة وفقدان الإيمان بالاشتراكية والقومية العربية. فتعالت الأصوات التي نادت بالتخلي عن كل الأنظمة المستوردة من الغرب والعودة إلى الإسلام. «التطرف الديني يترعرع دائماً فوق حطام التجارب الفاشلة» كتبها الكاتب التونسي المقيم في باريس، عبد الوهاب مدب. بعد النكسة عاد الإسلاميون بشعار «الإسلام هو الحل». العودة للمربع الأول وأسلمة الصراع هي دائماً الحل الأخير. وبينما كان الفدائيون الفلسطينيون في بداية الصراع اشتراكيين ولا علاقة لهم بالدين، بدأت الحركة الإسلامية حماس في الصعود في ثمانينيات القرن الماضي وتلقت حتى معونات من إسرائيل لتقف في وجه منظمة التحرير العلمانية التي كان يقودها ياسر عرفات.

التحالفات الخاطئة وعواقبها الوخيمة هي قصة العالم العربي المعاصر. تحالف الإنجليز مع آل سعود وتحالف عبد الناصر مع «الإخوان» ثم تحالف السادات معهم لضرب الناصريين، ثم تعاون الأمريكان مع شاه إيران ثم مع صدام ثم مع بن لادن. والآن تحالف



الغرب مع الأنظمة العربية المستبدة. كل ذلك يقف في وجه التغيير ويعرقل أي محاولة للإصلاح. ومع ذلك فإن السبب الأساسي للأزمة هو حالة الفكر التي تسيطر على مجتمعاتنا وعدم القدرة على خلق عملية طويلة المدى من الإصلاح الداخلي والتخطيط السليم. ومن المؤسف أن الحركة العربية الوحيدة التي تمكنت من فعل ذلك حتى الآن هي تنظيم القاعدة التي استخدمت الفكر العنكبوتي والتكنولوجيا الحديثة والانضباط كأدوات لتحقيق أهدافها. فلو أن الإصلاحيين تخلوا عن الشعارات واتخذوا من «القاعدة» والصهيونية مثلاً أعلى، ربما سنصل يوماً لحل أزمتنا.

ولكن على الجانب الآخر يمثل تنظيم القاعدة أكبر مأساة يواجهها الفكر الإسلامي: فهم يشترون أسلحة غربية ليقتلوا بها الغرب، ويستخدمون كاميرات فيديو غربية ليذبحوا أمامها رهائن غربيين، ويغازلون وسائل الإعلام الغربية من أجل أن يصل صوتهم لأعدائهم.

حالة انفصام واضحة تسيطر على مجتمعاتنا العربية. فمن ناحية يزداد التزمت والجمود الفكري، ومن ناحية أخرى وصلت معدلات الاستهلاك إلى حد خطير. فى حين ننظر إلى الغرب كعدو كافر، تمتلئ شواطئنا ومدننا بالسياح الأجانب الذين يوفرون لنا بذلك أهم مصدر للدخل القومي. الكثيرون ممن يعملون بمجال السياحة لا يجدون بديلاً عنه ويشعرون في الوقت ذاته أنهم يبيعون أرواحهم للشيطان، لأنهم يحملون الخمور ويساعدون على البغاء. منذ شهور قابلت شاباً من خريجي كلية الشريعة والقانون ومع ذلك كان يحمل الشيشة والكحول للسياح الأجانب بأحد فنادق الغردقة. رأيت في عينيه الحسرة والنقمة



والشعور بالذنب. «أمال بس الواحد يعمل إيه يا باشا؟» كان تعليقه الوحيد على عمله الذي يخجل منه.

والسياح الأجانب لا يجلبون معهم أفكار التنوير والديمقراطية ولكن عنجهية «الأسياد» وجهلهم بالحضارات. تراهم يحبسون أنفسهم في رحلات منظمة لا يرون فيها حقيقة البلد الذي يزورونه، بل يؤكدون فقط أحكامهم المسبقة عن الفقر والكسل السائد في مجتمعاتنا. يعيشون في فنادق مكيفة ويستهلكون كميات مهولة من مياه الشرب في حمامات السباحة وملاعب الجولف، رغم أن كل البلدان العربية تعاني من نقص في المياه.

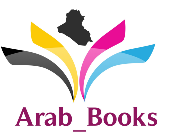
وهناك ظاهرة أخرى في منتهى الخطورة تنخر مثل السوس في مجتمعاتنا وتوضح مدى ازدواجية الأخلاق التي وصلنا إليها. شباب مصريون مفتولو العضلات يتجولون على شواطئ الغردقة وشرم الشيخ ويبيعون أجسادهم للسائحات الغربيات كبيرات السن، وعاهرات من أوروبا الشرقية يمارسن الرذيلة مع من يدفع. وفي تونس اخترعوا لتلك الممارسات كلمة تعبر أن كل شيء عندنا أصبح للبيع: بيزنس. ولكن ليس وحدهم السياح الغربيون «الكفار» هم الذين يمارسون السياحة الجنسية، بل أيضاً أشقاؤنا العرب. فجولة صغيرة في شارع جامعة الدول العربية وشارع الهرم وفنادق دمشق وحانات بيروت تكفي لرؤية الحقيقة المرة.

حراس الأخلاق في بلادنا يزدادون يوماً بعد يوم في حين تختفي الأخلاق الحقيقية من تعاملاتنا مع بعضنا. التدين الظاهري ينمو كالسرطان في حين تنحسر روح الدين ومبادئه. الشباب يبحثون عن



بوصلة وعن بصيص أمل، فينتهي بهم المطاف عند الجماعات المتطرفة أو دعاة الفضائيات الذين لا يبيعون إلا الوهم والحواديت. العنف والإرهاب ظواهر لا يؤيدها معظم المسلمين، ولكنها نابعة من حالة فكر وأسلوب حياة يسيطران عليهم. الخلل بدأ منذ زمن، ولكنه يزداد اليوم بشكل ملحوظ ويهدد بزلزال.




Arab_Books

الحداثة والمُحدثة..

أو طريق المسلمين الشائك نحو التنوير

أراد نابليون بونابرت أن تكون حملته الفرنسية على مصر بداية لبناء إمبراطورية فرنسية في الشرق تقطع الطريق بين إنجلترا ومستعمراتها في الهند. وقد تمكن من إحكام سيطرته على مصر بسرعة بعد أن تعاون مع بعض علماء الأزهر وكبار التجار(طبقاً لما ورد في بعض المصادر الفرنسية). والحقيقة أن المصريين بطبيعتهم ليسوا شعباً ثورياً، وكان من السهل عليهم دائماً قبول أي حاكم إغريقياً كان أم رومانياً، فاطمياً أم تركياً، فرنسياً أم إنجليزيا، صعيدياً أم منوفياً. وكان الدين دائماً هو مفتاح يدخل به الحاكم الجديد إلى قلوب المصريين. فقد نشر الفرنسيون إشاعة أن نابليون اعتنق الإسلام حين لاحظوا عدم قبول المصريين له، ثم دعا له الشيوخ من فوق المنابر وقالوا إنه من أولي الأمر. وكان الإسكندر المقدوني قد فعل نفس الشيء عندما فتح مصر، فذهب إلى واحة سيوة وعمّد نفسه ابنا للإله آمون، فقبله المصريون كحاكم بأمر الإله. وقد انتبهت جيوش النازي لتلك المسألة فنشروا إشاعة إسلام هتلر أثناء الحرب العالمية الثانية أثناء تقدم قائده روميل في الصحراء الغربية، حتى يناصره المسلمون ضد الإنجليز. وفى الوقت نفسه استخدمت فرنسا



مرتزقة من المغرب العربي في حروبها ضد ألمانيا وباركت «جهادهم في سبيل الله».

لم يأتِ مع نابليون فقط الأسلحة ومعدات الحرب، بل العلماء والجيولوجيون الذين اكتشفوا كنوز مصر قبل أبنائها. فكتبوا كتاب «وصف مصر» واكتشفوا حجر رشيد وفكوا رموز اللغة المصرية القديمة. جاءوا بنظام قضائي وإداري حديث بهر المسلمين، كما يكتب المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي الذي عايش الحملة الفرنسية. ولكن عندما سمع نابليون بخسائر فرنسا الحربية في أوروبا ترك مصر وسلم حكمها لصديقه الجنرال «جان بابتيست كليبر» الذي لم يكن محبوباً من المصريين، حيث تم اغتياله على يد الطالب الأزهري سليمان الحلبي. وسليمان الحلبي اسم يعرفه الجميع في مصر، حيث يراه الكثيرون كبطل قومي، ولكن من الطريف أن نعرف أن عبد الرحمن الجبرتي يسميه «فتى أحمق وأرعن». فقد كان الجبرتي شاهد عيان لمحاكمة الحلبي ورأى كيف كانت محاكمة عادلة، وتعجب لماذا لم يقتل الفرنسيون الجاني دون محاكمة، كما يفعل حكام المسلمين إذا حاول أحد الاعتداء عليهم أو حتى ذمهم.

ولكن «الفتى الأحمق الأرعن» قد أصبح بعد مائة وخمسين عاماً من إعدامه بطلاً عند كتابة تاريخ مصر الحديث بعد «ثورة» عام 1952، كما أصبح شهيدا ومجاهداً في عيون أنصار الإسلام السياسي. فكل دولة قومية وكل حركة تحرير تحتاج لأبطال حتى ولو من ورق.

وبعد ثلاثة أعوام رحلت الحملة عن مصر، ولكنها تركت رائحة الحداثة وبعض أفكار الدولة الحديثة، فقد اجتمع علماء الأزهر والتجار



والأعيان وقرروا عزل خورشيد باشا حاكم مصر وتعيين الجندي الألباني محمد علي الذي لاحظوا مواظبته على الصلاة في الأزهر. وقد كان ذلك هو أول وآخر انتقال سلمى للسلطة في بلد عربي دون انقلاب عسكري أو توريث. ولكن يبدو أن أعيان مصر ورجال دينها لم يجدوا مصرياً واحداً قادراً على حكم مصر، فذهبوا لأحد الجنود المرتزقة ليحكمهم.

من الممكن إجراء مقارنة سريعة بين محمد علي وجمال عبد الناصر: كلاهما تعاون مع رجال الدين للوصول للحكم ثم تخلص منهم بعد أن نال غرضه، فقد تودد محمد علي لشيوخ الأزهر حتى نصبوه حاكماً، ولكنه قام بنفيهم ما إن وصل للعرش. في حين تعاون عبد الناصر مع الإخوان حتى قامت الثورة، ثم ألقى بهم في السجون فور وصوله إلى الحكم. كلاهما أراد تحديث مصر وتطويرها فطورا التعليم وأرسلا البعثات للخارج وأقاما المصانع والمشاريع الزراعية. كلاهما حاول بناء جيش مصري قوي وجعل صوت مصر مسموعاً فى العالم، فانتهت مغامرة كليهما بكارثة أعادت مصر للوراء، حيث انقضت القوى العظمى عليهما ودمرت مساعيهما. ولكن كليهما ارتكب أخطاءً عديدة. فلنبدأ بمحمد علي ثم نعود لعبد الناصر فيما بعد.

نظر محمد علي إلى فرنسا كمثل أعلى لبناء دولته، وقد أدرك أن بناء دولة حديثة يحتاج في المقام الأول لجيش قوي وصناعات ثقيلة. فأرسل بعثات إلى فرنسا وأمر بترجمة الكتب من الفرنسية للعربية. وكان من بين الطلاب الذين ذهبوا لفرنسا رفاعة رافع الطهطاوي، الذي أسس فيما بعد مدرسة الألسن في القاهرة التي أتشرف أن أكون أحد خريجيها. ما نعلمه عن رفاعة أنه كتب كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريس»



وقام بالعديد من الترجمات. ما لم نعلمه هو أن معظم الترجمات التي كُلف بها الطهطاوي كانت لمستندات عسكرية عن بناء السفن وعن الخطط الحربية. ركز محمد علي باشا على الجانب الحربي والصناعي ونسي الجانب الفكري والتعليمي. وحتى الصناعة لم تتطور بشكل جيد في عهده لأنه بنى المصانع العملاقة التي لم يعرفها المصريون والتي لم يكن لها أدنى علاقة بالصناعات الحرفية الصغيرة التي اعتادوا عليها. كما أنه لم يأخذ من فرنسا إلا مفهوم الحداثة المادية ونسي أهم مبادئها وهي الديمقراطية والفكر الحر. فعلى الرغم من كل جهود التحديث ظل محمد علي حاكماً من الطراز العربي الأصيل، يحكم بلا محاسبة ويغتال أعداءه ويوزع الثروات والأراضي على عائلته ومحسوبيه ويورث الحكم لأبنائه، وبذلك أصبح مثلاً أعلى لكل حكام العرب في العصر الحديث.

استعار محمد علي أدوات الحداثة ومنتجاتها ولكنه ابتعد عن روحها ومبادئها، وهي قضية معظم الإصلاحيين في مجتمعاتنا الإسلامية، الذين يأخذون من فكر الإصلاح فقط ما يخدم مخططاتهم ويحافظ على سلطاتهم. ولكن الحداثة ليست «بوفيه مفتوح» نأخذ منه ما نشاء ونرفض ما نشاء. فإما أن يتوصل المشروع الحداثي إلى ديمقراطية وفكر حر أو أنه يصبح ركاماً ينمو فوق أشلائه التطرف والركود. هذه قصة محمد علي وجمال عبد الناصر اللذين كانا حسني النية وأرادا تغيير مصر، ولكنهما نفسيهما لم يتغيرا ولم يفتحا الطريق إلى ديمقراطية حقيقية، فانتهى مشروع الأول باحتلال مصر على يد الإنجليز؛ وانتهى مشروع الآخر بنكسة 67.

ولكن القضية ليست فقط سوء تخطيط الحاكم وتشبثه بالحكم وإنما



أيضا مفهوم الحداثة عند الشعب. فكلمة حداثة قريبة من كلمة مُحدثة، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. وحتى لو كانت المُحدثة التي تحدث عنها الرسول تعنى التجديد في الطقوس الدينية فقط، فإن قرابتها اللفظية بمصطلح الحداثة أثر سلبياً عليها.

ولو قارنا كلمة الحداثة في العربية بنظيرتها في اللغة اليابانية على سبيل المثال لعرفنا أين تكمن المشكلة. فكلمة حداثة باليابانية (بونمى كايكا) تعني «فتح أبواب الحضارة»، وقد أطلق اليابانيون على تلك العملية في نهاية القرن التاسع عشر «مغادرة آسيا واللحاق بأوروبا». وقد قاد دفة التغيير والحداثة في اليابان كاتب يدعى «فوكوزاوا يوكيتشى» وهو صاحب كتاب «وداعاً آسيا» الصادر عام 1885، الذي شرح فيه «يوكيتشى» لليابانيين مفهوم الحداثة وكيف يمكن لليابان أن تستفيد منها. كتب «يوكيتشى» يحث أبناء شعبه على الانفتاح ما يلي: «إن رياح الغرب تهب بشدة علينا حاملةً لليابان معها فرصة كبيرة لتتذوق فواكه المدنية الحديثة. ولو فوتنا تلك الفرصة فسنظل محبوسين في قدرنا».

كانت اليابان في فترة الـ«ميجي» التي بدأت عام 1868 تمر بنفس المرحلة التي مرت بها مصر في عصر محمد علي، حيث حاولت بجدية اللحاق بأوروبا وتأسيس جيش قوي وصناعات حديثة. وقد نجح المشروع الياباني لأنه لم يبدأ بالصناعات الثقيلة مباشرةً؛ بل قام بتحديث المهن الحرفية التقليدية في اليابان وتنظيم نقابات للحرفيين والفلاحين لا تزال تلعب دوراً هاما في اليابان حتى اليوم. كما بنى اليابانيون جيشهم بصمت ولم يدخلوا حروباً حتى تأكدوا من قوتهم العسكرية. والأهم من ذلك هو أن اليابان لم تستورد فقط العلم الحديث والتقنية الصناعية من



الغرب، بل ترجمت أيضاً أعمال الفلاسفة الأوروبيين. وعلى الرغم من الصراع الضاري الذي نشب فيما بعد بين اليابان والولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية وإلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكى، وعلى الرغم من احتلال أمريكا لليابان بعد انتهاء الحرب، فلم تنشأ في اليابان روح عدائية ضد الغرب وأفكاره، بل حاول اليابانيون التعلم من أخطائهم فتعاونوا مع المحتل وأعادوا بناء بلدهم حتى أصبحوا ثاني أكبر قوة اقتصادية في العالم.

ولكن الحداثة جاءت دائماً للعالم الإسلامي محملة على سفن الغرب الحربية، وكان يتم فرض أفكارها وأدواتها على المسلمين، إما عن طريق المستعمر المحتل أو القائد العسكري دون شرحها وتوضيحها للمواطنين. لم يوجد بين المسلمين شخص مثل «فوكوزاوا يوكيتشى» ليشرح للمسلمين ما هي الحداثة وكيف السبيل إليها. بالطبع كان هناك محمد عبده والأفغاني اللذان عاشا في نفس زمن "يوكيتشى» ولكن نظرتهم إلى الحداثة كانت محدودة وترحيبهم لها مشروطاً بأمور دينية وتراثية. وبذلك قاد فكر الأفغاني وعبده إلى السلفية أكثر مما قاد إلى الانفتاح.

لم يستغن اليابانيون عن حضارتهم وتراثهم حين قرروا الانفتاح على الغرب، ولكنهم لم يجعلوا من هذا التراث ضداً أو بديلاً للحداثة، بل قرروا دمجهما في خليط متناسق لا يلغي بعضه بعضا. فهم اليابانيون حينها أن لغة العصر الحديث هي لغة العلم والتكنولوجيا، وأن أوروبا هي الأكثر تقدماً في تلك المجالات، وأنه لا داع للخجل من استعارة تلك الأدوات، فقام اليابانيون بنسخ القوانين الأوروبية وأساليب التعليم وفتحوا الأبواب للموسيقى الكلاسيكية والفلسفة. أما على



الجانب الآخر فقد تم استخدام مصطلحات «التراث» و«الأصالة» في العالم العربي والإسلامي في معظم الأحيان كدروع للصراع وأضداد للحداثة ومبادئها. كانت نظرة المسلمين للحداثة دائماً يشوبها الشك وأحياناً الغضب، ظناً منهم أنه لا يأتي خيرٌ أبداً من بلاد الكفار. وبينما رأى اليابانيون في مجيء الفكر الأوروبي فرصة للتغيير والتقدم، كان ذلك المجيء للمسلمين سبباً للتمسك بهوية قديمة عفا عليها الزمن. وكلما بحث المسلمون عن هويتهم وعن بدائل للنظم الغربية انتهى بهم المطاف دائماً إما إلى أحضان الدولة الدينية مثل السودان وأفغانستان وإيران، أو إلى أحضان القائد العسكري من أمثال عبد الناصر والأسد والقذافي وشاه إيران وصدام حسين.

كان الإسلام السياسي دائماً قادراً على توفير حيِّز للهروب إلى الخلف: الهروب إلى تاريخ خيالي لأمة إسلامية خالية من العيوب. ولكن هذا الإسلام السياسي ما قدم أبداً حلولاً للأمام. كانت لديه القدرة دائماً أن يكون معارضاً جيداً وصوتاً غاضباً، ولكن ما إن آلت إليه السلطة حتى انتهى الأمر بكارثة مثلما رأينا في أفغانستان والصومال ونيجيريا والسودان. إن العودة المتكررة إلى شعار إسلامي مثل «الإسلام هو الحل» هو دليل على قلة الحيلة واليأس السياسي.

ومهما مرّ العالم الإسلامي بمراحل الانفتاح والتنوير فإن العودة للأسلمة كانت دائماً بديلاً مطروحاً بصفة دائمة. ففي حين شهد القرن الثامن الميلادي مناقشات مفتوحة حول القرآن وقدسيته وحول الشريعة ودورها وآراء مستنيرة لمدارس فكرية مثل المعتزلة، نجد أن نهاية القرن العشرين شهدت مقتل محمود محمد طه في السودان وفرج فودة في



مصر وتطليق نصر حامد أبو زيد من زوجته واتهامه بالكفر. ولم تكن جناية الثلاثة سوى أنهم أعادوا فتح الملفات الشائكة لدور القرآن والشريعة والخطاب الديني في المجتمع الحديث.

فى عام 1937 كتب إسماعيل أدهم كتيباً بعنوان «لماذا أنا ملحد» شرح فيه قناعته بالإلحاد وسعادته به مثل قناعة المؤمن وسعادته بإيمانه. لم يُحدث هذا الكتاب أية ضجة في المجتمع المصري حينها، وجاء الرد الوحيد عليه من الشاعر أحمد زكي أبو شادي في مقال «لماذا أنا مؤمن» وانتهت القصة عند ذلك الحد. كان المجتمع المصري حينها في طريقه لامتصاص فكر الحداثة وفصل الدين عن السياسة وخلق مجتمع مدني يحترم جميع مواطنيه مهما كانت انتماءاتهم الدينية والفكرية. ولكن تلك الحداثة كانت مبنية على أساس هش في مصر، حيث لم تصل أفكارها سوى لشريحة بسيطة من المجتمع، لذلك فقد كان من السهل التغلب عليها والعودة للفكر المتزمت مرة أخرى. فلو كتب اليوم أحد كتاباً يشرح فيه أسباب قناعته بالإلحاد فلن يأمن من أبواق المتأسلمين ورصاص الإرهابيين. فقد تم إعدام محمود محمد طه في السودان عام 1985 لمجرد أنه اعتبر الشريعة الإسلامية كياناً تاريخيا كان يجيب على متطلبات المسلمين في المدينة المنورة فقط، كما رأى أن الآيات المكية من القرآن صالحة لكل العصور لأن بها نظرة كونية شاملة، أما الآيات المدنية فهي مرتبطة بأحداث بعينها ولي عصرها. كما لقي فرج فودة مصرعه على يد الإرهابيين في عام 1992 لأنه كان من المطالبين بفصل الدين عن السياسة، وتوجه نصر حامد أبو زيد عام 1995 إلى هولندا فاراً من صراخات التكفير التي تعقبته بسبب كتاب كان نشره في ثمانينيات القرن الماضي حول مفهوم النص القرآني.



نعم.. إن الفكر العربي والإسلامي كان أكثر انفتاحاً ونضوجاً في بدايات القرن العشرين عما هو الحال في بدايات القرن الحادي والعشرين، ولكن هذا لا يعنى أن الناس كانوا حينها أقل إيماناً من اليوم، بل صار هذا الإيمان أكثر صورية وحنجرية اليوم، وصار يفتقر إلى الجوهر والسكينة.

هناك أسباب كثيرة أدت إلى هذا التزمت الفكري، وأهمها في نظري هو فشل كل محاولات التحديث التي لم تجلب للناس الديمقراطية والرخاء. أما السبب الآخر فهو عدم تنقية الفكر الاسلامي من مرض الأصولية وعبادة النص، وهو مرض ليس حديث بالمرة، وليس - كما يرى الكثيرون - مجرد رد فعل على الحداثة والعولمة. فالأصولية والميل للتزمت عمرهما من عمر الإسلام نفسه، وكانت كل أزمة يمر بها المسلمون تعيدهم إلى الأصولية مرة أخرى، فبعد الفتنة الكبرى وانفصال الشيعة ظهر الفكر الأصولي عند أهل السنة بزعامة ابن حنبل، وبعد هجوم الصليبيين والتتار انتعش الفكر المتزمت الذي أحياه ابن تيمية، وفى نهايات القرن الثامن عشر ظهر محمد بن عبد الوهاب الذي سلك نهج ابن حنبل وابن تيمية، ولكنه كان أكثر بدائية منهما، ثم ظهر في السودان فكر المهدي وفى الهند فكر المودودي كرد على الاستعمار.. ثم ظهر الإخوان المسلمون في مصر الذين كانوا نواة لجميع الحركات الإسلامية والتكفيرية الجديدة. وهناك في أحراش أفغانستان التقت كل هذه الأفكار وكونت تحالفاً غريباً نتج عنه تنظيم القاعدة الذي يمثل حضيض الفكر الإسلامي المعاصر.

فى الحقيقة فإنه لا يوجد في التاريخ الإسلامي كله عملية يمكن



مقارنتها بحركات «التنوير» في أوروبا، فكل محاولة إصلاح فكري أو ثقافي كانت فردية جاء بها علماء أفذاذ من أمثال المعتزلة وابن رشد ومحمد عبده ونصر أبو زيد، ولكن هذه الأفكار والمحاولات لم تكن سوى قنوات صغيرة في صحراء شاسعة، ففقدت مياهها قبل أن تلتقي وتصبح نهراً يشق طريقه صوب المحيط. لم تكن سوى موجات صغيرة تحطمت على صخرة الأصولية العنيدة.

إن كلمة «process» الإنجليزية تختلف تماماً عن مرادفتها العربية «عملية»، ففي حين تعني الكلمة الإنجليزية سيرورة طويلة من المحاولات والإخفاق، تعبر الكلمة العربية عن عملية قصيرة محدودة، ولذلك فإننا نطلق اللفظ نفسه على العملية الجراحية. ربما يكمن هنا سر فشل جميع «عمليات» الإصلاح والتنوير التي بدأت في مجتمعاتنا الإسلامية ثم ذهبت طي النسيان، لأنها كانت محاولات موقوتة لم تبن على ما هو موجود أو تمهد لما هو قادم. ولعل قصة عباس بن فرناس أصدق دليل على ذلك، فقد كان عالماً فيزيائياً نابغاً درس حركات الطيور وحلم بتقليدها، فأجرى حسابات دقيقة وصنع جناحين من الريش ثم حاول الطيران في سماء قرطبة في القرن التاسع الميلادي. ولكن رحلة طيرانه لم تتعد أربعمائة متر سقط بعدها على أرض الواقع وانكسرت ساقاه. لم يكرر ابن فرناس محاولته مرة أخرى ولم يجرؤ عربي واحد على إعادة المحاولة. ربما تصف هذه القصة حالة الفكر العربي الذي لم يفتقر أبدا إلي النوابغ ولكنه افتقر إلى الاستمرارية والتواصل والتخطيط على المدى البعيد. قصة ابن فرناس هي بلا شك أيضاً قصة الإصلاح أو اللا إصلاح في العالم الإسلامي.



بالطبع لعب الاستعمار دوراً هاماً في عرقلة الحركات الإصلاحية، فقد كانت القوى الاستعمارية معنية بنهب ثروات البلاد المستعمرة في المقام الأول. ولكن البكاء على الحقبة الاستعمارية اليوم لن يفيد أحداً، فقد استعمرناهم مرة واستعمرونا مرة. وعلى العموم فإن الاستعمار كانت له أشكال مختلفة، ومهما كانت شراسته وجشعه فإنه جاء بأدوات الحداثة التي لم نحسن استخدامها. وهناك فرق شاسع بين الاستعمار الفرنسي والاستعمار البريطاني: فالإنجليز لم يتدخلوا فى الشئون الثقافية والحضارية لمستعمراتهم واكتفوا بالسيطرة على الثروات والموارد، لذلك فنحن نلوم عليهم عدم المبالاة والاستغلال. أما الفرنسيون فكانوا حريصين على بناء المدارس ونشر اللغة والثقافة الفرنسية فى مستعمراتهم، فلمنا عليهم محاولة طمس ثقافتنا وهدم مقدساتنا. إذن فهم الجناة دائماً ونحن الضحايا دائماً، وهذه نظرة منقوصة إلى التاريخ فوتت علينا فرصاً كثيرة للانفتاح على العالم والاستفادة من الآخرين، فقد ظللنا محبوسين فى دور الضحية ظانين أنه لا يأتي خيرٌ أبدا من بلاد المستعمرين. وحتى بعد مرور عشرات السنوات من نهاية الاستعمار ما زلنا نشكك في نوايا كل مصلح ونصفه بالعمالة للغرب ومحاولة النيل من تراثنا وثقافتنا، فنقتل كل جنين للتغيير قبل أن يلتقط أنفاسه الأولى.

ولكن ضراوة الاستعمار وقسوته ليستا السبب الرئيسي لحالة التشنج التي نتعامل بها مع الغرب اليوم. أيضاً ليست فقط قضايا المسلمين غير المحلولة في فلسطين والعراق والشيشان وراء حالة «الزعل المزمن» التي تسيطر على علاقتنا بالغرب، ولكنى أعتقد أن نظرة المسلمين إلى أنفسهم وإحساسهم بالضعف وقلة الحيلة هي وراء حالة التشنج هذه.



والكاتب الفرنسي التونسي عبد الوهاب مدب يرى أن المسلمين لم يقبلوا بعد حقيقة أنهم فقدوا الريادة في العالم منذ زمن بعيد وأنهم لا يزالون يصرون على أحقيتهم في قيادة العالم، وأن هذا التفكير يقف عائقاً بينهم وبين الغرب الذي سحب البساط من تحت أقدامهم. ويرى مدب أن هذا هو السبب الحقيقي لكراهية المسلمين للغرب وأن هذه الكراهية هي غذاء الأصولية التي يسميها مدب «مرض الإسلام».

ويصف الفيلسوف الألماني «نيتشه» الشخص الكاره الحقود بأنه شخص يعتقد أنه أفضل من الظروف التي يعيش تحتها وأفضل من عالمه المحيط، وأن الكراهية المزمنة هي شعور ينتج من إحساس غير موضوعي بأن هذا الشخص مظلوم على طول الخط. ويشبه نيتشه هذه الكراهية بالحمى التي لا يشفى الشخص منها أبداً فتؤدي في النهاية إلى تسمم ذاتي. كما يصف الفيلسوف «أدورنو» الكراهية بأنها الموتور الأخير الذي يحرك مجموعة من البشر إذا فقدت كل طاقتها، وأن العدو والشعور الدائم بالكراهية نحوه هما مصدر لتجميع القوى المسلوبة، وهى ظاهرة موجودة حتى في مباريات كرة القدم.



تجارة الغضب..

أو أنا مسلم إذن أنا زعلان

أعتقد أن شعورنا بعداء الغرب لنا ورغبته في النيل منا هو شعور عزيز علينا جداً، فلا نريد أن نتخلص منه. فهذا الشعور يجعلنا نعتقد أن لنا قيمة. فلو أن الغرب تجاهلنا تماماً لأصبنا بخيبة الأمل وربما شعرنا أننا لسنا على قيد الحياة. فأرانا نترقب إهانات الغرب لنا وننقب عنها في كل مكان وكأننا نتلذذ بذلك في لعبة مازوخية. فيبدو أن الغضب والعداء هما السلاحان الوحيدان المتبقيان لدينا في صراعنا مع الغرب بعد أن خسرنا سباق العلم والصناعة والتسلح ضده. ومن ناحية أخرى فإذا جاء مديحٌ للإسلام من شخص غربي كان ذلك مثل بلسم على جروحنا. فبينما ودعنا الرئيس الأمريكي السابق بضربة حذاء من العراق، استقبلنا الرئيس الجديد أوباما بالتصفيق الحاد في جامعة القاهرة، وكانت قاعة المحاضرات تهتز نشوةً كلما استشهد أوباما بآية من آيات القرآن أو اعترف بدور المسلمين الحضاري عبر التاريخ.

ولكننا نحتفي بالأهانات أكثر من احتفائنا بالمديح، وكأننا مصابون بإنفلونزا مزمنة اسمها الزعل، فلا يمر يوم واحد دون أن نبدي فيه للعالم أننا مستاؤون «وواخدين على خاطرنا من الدنيا واللى فيها».



وكأن مصائبنا الداخلية لا تكفينا كمصدر للنكد والعويل، فإننا نفتش في أخبار باقي العالم عن مسلمين مضطهدين في الصين أو الشيشان أو بلاد الواق واق كي نتأفف أكثر ونثبت لأنفسنا أن هناك مؤامرة كونية تحاك للمسلمين في شتى بقاع الأرض وأصقاعها. وإذا شبعنا من هذه الأخبار نذهب لنفتش في ضمير العالم عن راسم كاريكاتير يستهزئ بالرسول أو رجل عنصري أوروبي تطاول على الإسلام والمسلمين أو نادي كرة قدم يدعى في أغنية فريقه زورا وبهتانا أن نبينا لم يكن يفقه شيئا في كرة القدم.

والصحف العربية تفهم أن الشعوب «طهقانة وطالع عينها» من جهة، وعاطفية من جهة أخرى، فنراها تنتقي لهم الأخبار التي تضرب على الوتر الحساس. ولو كان الخبر ليس دراميا بما يكفي يتم تحبيشه وإعادة صياغته بصورة تضمن المفعول الأكيد: زوبعة في فنجان. صارت هذه الأخبار بمثابة طب نفسي شعبي: نثور ونلعن ونتظاهر ونفرغ مخزون الغضب الذي بداخلنا في الهواء ثم نعود إلى ديارنا ونستلقي على قفانا وكأننا فعلنا شيئا عظيما. وفى النهاية لا يستفيد إلا الدكتاتوريون في بلادنا لأننا نبدد جهودنا في مبارزة «اللهو الخفي» فلا تبقى لدينا طاقة من أجل التفكير في التغيير.

صار من يقرأ الصحف العربية يظن أن العالم بصفة عامة والغرب بصفة خاصة ليس لهم شاغل سوانا، وكأنهم يستيقظون في الصباح فيكون أول سؤال يطرحونه على أنفسهم هو: كيف نعكر دم المسلمين وننكد عليهم عيشتهم؟ دعوني أكون صريحا معكم: نحن لا نعني أي شيء بالنسبة للغرب، فنحن لا ننافسهم في الاقتصاد ولا نتفوق عليهم



في البحث العلمي، وكل ما يريدونه منا هو فقط ما تبقى من بترولنا حتى يخترعوا بديلا له. ما عدا ذلك فلا نشغل من تفكيرهم سوى حيز بسيط وهو كيف يتجنبون شرورنا وكيف يسوقون بضائعهم عندنا. بل نحن المهووسون بهم والمصابون بوسواس قهري تجاههم. هم لا يفكرون في إيذائنا وإنما يعيشون حياتهم الطبيعية وفق مبادئهم وبحثا عن مصالحهم ويدوسون بأقدامهم على من يقف في طريقهم، وليتنا نفعل مثلهم.

بالطبع فإن الانتقاد والسخرية موجودان في الغرب وجودا ملحوظا، ولكنهما مسلطان على الجميع ولا يستثنيان دينا أو مقدسا. بل إن «الرموز» مثل رئيس الدولة أو بابا الفاتيكان أو حتى شخص المسيح هم أكثر من يتعرضون للازدراء والانتقاد. ففي سبيل تحرر أوروبا من سلطة الكهنوت وسلطة الكنيسة تعلم الأوروبيون أنه لا يوجد شيء أكثر قدسية من حياة الإنسان وحريته. وحتى لو كانت هذه الحرية تزيد عن الحد أحيانا وحتى لو كان الانتقاد يعكر صفو البعض، فإنهم اصطلحوا على أن هذه آثار جانبية لا بد من أخذها واحتمالها كجزء من «باكيج» الحرية التي لا غنى عنها. حاربت أوروبا طويلا من أجل إزالة الخطوط الحمر، لأنه لا يوجد فكر حرا مع خطوط حمر، ولا تقدم بلا فكر حر.

بالطبع ما زالت هناك بعض الخطوط الحمر في أوروبا، مثل الهولوكوست، فبعض دول أوروبا مثل ألمانيا وفرنسا تعتبر إنكار المحرقة جريمة عقوبتها الحبس. ولكنها خطوط حمر من صنعهم هم وناتجة عن تاريخهم، فلم يفرضها عليهم أحد من الخارج. وخطوطهم الحمر هذه ملزمة لهم وحدهم فلا يفرضونها علينا في بلادنا.



يعيش في أوروبا ملايين المهاجرين من الأجناس والديانات كافة، وهم يقبلون أن الدين لا يلعب دورا كبيرا في المجتمع. ومعظم هؤلاء المهاجرين - فيما عدا مجموعة من المسلمين ومجموعة من اليهود - لا ينتظرون من الأوروبيين احترام مقدساتهم في كل قول أو فعل.

أنا هنا لا أبرر أو أدافع عن إهانة قد تحدث ضد هذه المقدسات، ولكنى أحاول أن أوضح أن موجات الغضب الإسلامية في مواجهة كل من يتعرض لمقدساتنا بالانتقاد أو الإهانة لا تأتي بنتائج إيجابية. نعم قد تؤدي مظاهرات بعض المسلمين إلى إلغاء مسرحية أوروبية فيها انتقاد لاذع للإسلام أو سحب عمل فني من السوق لأنه صور الكعبة بصورة غير لائقة، ولكن ذلك لا يعني أن من أوقف المسرحية أو سحب اللوحة صار يحترم الإسلام فجأة. بل إنهم يفعلون ذلك لأسباب أمنية لأنهم يعرفون من واقع تجاربهم أن الإسلاميين قادرون على تصفية من يتعارض معهم.

نعم لقد تعلمت أوروبا درسا بعد الرسوم الدنماركية المسيئة للرسول وصارت أكثر حذرا في التعامل مع مقدسات المسلمين، فمعظم برامج التليفزيون صارت تستشير أساتذة في الدراسات الإسلامية قبل أن تبث برنامجا عن الإسلام. وقدم بابا الفاتيكان شبه اعتذار عن كلمة ألقاها في مدينة ريجينزبرج الألمانية عام 2006 اتهم فيها الإسلام بالميل للعنف وعدم العقلانية. حتى نادي شالكه الألماني الذي صارت حوله ضجة كبيرة بسبب أغنية يرددها مشجعوه منذ عام 1963 تقول إن النبي لم يكن يفهم شيئا في كرة القدم، تشاور مع المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا وأبدى استعداده لمنع الأغنية.



ولكن ذلك أدى عبر السنوات الأخيرة إلى احتقان، بل وكراهية تختفي داخل كثيرين تجاه كل شيء يمت للإسلام بصلة. فمن بين أكثر الكتب مبيعا في ألمانيا هذه الأيام نجد كتبا بعنوان «انقدوا الغرب من الأسلمة» أو «نقد التسامح» أو «أحارب ضد الإسلام.. أحارب من أجل الحرية» وكلها تحذر من الاستكانة والرضوخ لطلبات المسلمين وتحث الأوروبيين على عدم تقديم تنازلات.

ربما صار الأوروبيون أكثر حذرا تجاهنا، لكن هذا الحذر نابع من الخوف لا الاحترام، فأنت لا تستطيع أن تفرض على الآخرين أن يحترموك بالصراخ، ولكن بإمكانك أن تجبرهم على احترامك بإنجازاتك ومواقفك، تماما مثل الدلاي لاما زعيم البوذيين التبت الذي يحظى في أوروبا بشعبية تفوق شعبية بابا الفاتيكان لأنه لم يَنْسَق لاستخدام العنف ضد الاحتلال الصيني لبلاده، بل يحث أتباعه دائما على ضبط النفس والتخلي عن العنف. وهو مع ذلك لم يتخل عن قضية بلاده ويجوب العالم لحشد الدعم لها.

أما نحن فما زلنا في عيون غالبية الأوروبيين إما مجرد حفنة بارود قابلة للاشتعال لأتفه الأسباب أو مجموعة من الأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة، فيجب ألا يستفزونا حتى لا نقذفهم بالحجارة. وهذا لم يخدم قضية واحدة من قضايانا، بل يسهم يوميا في بعدنا عن العالم وبعد العالم عنا.

صرنا نشعر بالزعل لأتفه الأسباب، فلو أن طفلا أوروبياً يلعب نطق خطأ باسم النبي لاعتقدنا أنها مؤامرة، أو لو أطلقت مدرسة بريطانية اسم محمد على دب من قماش لقامت الدنيا ولم تقعد. صرنا نغضب لو انتقد



مصري قبطي الإسلام أو طالب مصري بهائي بكتابة اسم ديانته الحقيقي في بطاقته الشخصية. حتى تراثنا الأدبي صار يصيبنا بالزعل فتجرأت مجموعة من المحامين تطلق على نفسها اسم «محامون بلا قيود» على إقامة دعوة قضائية على وزارة الثقافة في مصر بسبب إعادة طباعة «ألف ليلة وليلة» على اعتبار أنها عمل ماجن وغير أخلاقي.

لقد نسينا أن من يطالب الآخرين باحترام مقدساته لا بد أن يكون نفسه مثالا لاحترام مقدسات الغير.. انظر حولك عزيزي القارئ المسلم ثم فتش في ضميرك أولاً كيف تنظر إلى بقرة الهندوسي وتمثال بوذا والأناجيل وكتاب أقدس البهائي! هل فكرت مرة واحدة أن أسلوبك في الكلام عن مقدساتهم قد يجرح مشاعرهم؟

ماذا حدث؟ وكيف وصلنا إلى الحضيض؟ في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي كانت تسود حالة من الثقة بالنفس، فلم يلتفت المسلمون حينها لنقد أو ذم غير المسلمين، بل إن الخليفة العباسي كان ينظم في بلاطه مسابقات للهجاء ينتقد فيها شعراء اليهود والمسيحيين والمسلمين ديانات بعضهم دون أن يخشى أحد منهم أن يكون الموت أو النفي مصيره. لم يكن المسلمون يعاملون الأقليات على أنهم خطر؛ بل استفادوا من خبراتهم وأعطوهم فرصاً لتحقيق ذواتهم، فكان لذلك أثر بالغ في تطور الثقافة والعلوم الإسلامية. وانتشرت في تلك الفترة الحانات والأشعار الإيروتيكية وحتى أشعار الزندقة دون أن يخشى المسلمون على دينهم. أما اليوم فقدْ فقدَ المسلمون تلك الثقة بالنفس وصاروا ينظرون بعين الحذر والتوجس إلى كل ما هو غير إسلامي، فصاروا يضيقون الخناق



على الأقليات الدينية ويزنون كل كلمة تأتى منهم على ميزان الذهب. كما صاروا يترقبون كل همسة تصدر عن الغرب.

وحالة الترقب وسوء الظن هذه صارت متبادلة بين الشرق والغرب. ولعل حادثة مقتل مروة الشربيني المؤلمة بإحدى قاعات العدالة بألمانيا أحد الدلائل لنتائج حالة سوء الظن هذه. تألمت عند سماع الخبر ولكني لم أتعجب، بل تعجبت أن مثل هذه الحادثة لم تحدث من قبل بهذه الصورة البشعة، رغم أن تجارة الخوف من كل ما هو عربي أو مسلم تجارة رائجة ورابحة في ألمانيا منذ أحداث سبتمبر 2001. وبخاصة منطقة شرق ألمانيا التي وقعت فيها هذه الجريمة، تشتهر بمعاداة الأجانب، حيث إنها حديثة العهد باستضافة أصحاب البشرة الداكنة، فقد ظلت 40 عاما مغلقة خلف سور برلين وغارقة في حلم شيوعي ساذج أفاقت منه على كابوس إفلاس دولة ألمانيا الشرقية. وما زالت هذه المنطقة - حتى بعد عشرين عاماً من إعادة توحيد ألمانيا - تعاني من مشكلات اقتصادية كبيرة ونسبة بطالة عالية؛ مما مهد الطريق أمام أنصار النازيين الجدد للترويج لفكرة أن كثرة الأجانب هي السبب وراء وضعهم الاقتصادي المتدني.

قد يكون هذا الخوف هو أيضاً نتاج صورة مرعبة يرسمها الإعلام الغربي بقصد أو دون قصد عن مخزون العنف في المجتمعات الإسلامية، فلا يمر يوم واحد دون خبر عن إرهابي مسلم يفجر نفسه في العراق أو باكستان، أو سائحين مختطفين في اليمن أو قراصنة بحار من الصومال يحتجزون سفينة صيد.. وهكذا، الخوف وعدم الثقة بالمسلمين يحتقنان داخل الكثير من الألمان، وهذا الخوف هو أيضاً وليد مخاوف الألمان من تاريخهم منذ القرون الوسطى ومحاكم التفتيش مروراً بالحروب الدينية



الضارية بين الكاثوليك والبروتستانت ثم الاجتياح العثماني لأوروبا وانتهاء بألمانيا النازية وجرائمها أثناء الحرب العالمية الثانية. الألمان يخافون في واقع الأمر من أنفسهم في المقام الأول، ولكنهم يعكسون هذا الخوف نحو المسلمين، فيرون فيهم ما كانوا هم في الماضي أو ما يخافون أن يصبحوا من جديد في المستقبل. والمسلمون المقيمون في أوروبا لا يسهمون في نزع هذا الخوف من صدور الأوروبيين، بل يجاهر بعضهم بمناصرته للعنف ورغبته في أسلمة أوروبا، بينما يبحث البعض عن تبريرات للتطرف والإرهاب.

كل هذا الخوف وسوء الظن والكراهية احتقنت عبر السنوات وتراكمت في نفسية شاب ألماني عاطل من أصل روسي فشل في أن يجد حلاً لمشكلاته فراح يعكسها على الآخرين ويجعلهم وحدهم المسئولين عن ورطته. ضاقت به السبل فسقط في عزلته ووقع في شباك نظريات المؤامرة، وأخيراً صب جام غضبه على من لا يستحق. قصته تشبه قصة أي متطرف مسلم في الغربة عجز عن الاندماج فتوجه للكراهية والعنف. ولكن لو كان هذا العنصري قد ضرب أحد المسلمين المتطرفين، لقلنا «متطرف ضرب متطرف»، ولكن مروة كانت مثالاً حياً على أنه ليس كل من يرتدي الحجاب متطرفاً أو أصوليا.

والمكان الذي وقعت فيه الحادثة له رمزية كبيرة، فمروة لم تصفع أو تسب هذا الـ«ألكس» عندما وجه إليها شتائمه العنصرية، بل لجأت للقضاء الألماني لأنها تثق به، ولأنها كانت تعلم جيداً أنه لو كان كل الألمان عنصريين لما حصل زوجها على منحة دراسية من هذا البلد ولما عملت هي كصيدلانية هناك. وهذا القضاء الألماني لم يخذلها في



البداية وعاقب المتهم بغرامة مالية وسماه وكيل نيابة دريسدن «عنصري معاد للإسلام». ولكن شاءت الأقدار أن تسقط مروة غارقة في دمائها في المكان نفسه الذي استغاثت به وانتظرت منه العدل. لم يسعفها أحد في قاعة المحكمة في حين كانت ثماني عشرة طعنة غادرة تخترق جسدها الهش. الدافع وراء هذه الجريمة كان بلا شك عنصريا ولكن سبب تخاذل من كانوا بالقاعة ليس كذلك - على حد تقديري - بل إن الجبن واللامبالاة هما السبب، فالشهامة ونجدة الغريب - وهما من الفضائل التي نعتز بها في الشرق - ليست من خصال الألمان، فقد اعتادوا أن يتفرجوا على المشاجرات حتى تأتي الشرطة.

ولكن الموضوع أكبر من مجرد سوء تفاهم، إنه تاريخ طويل من سوء الظن والخوف من الآخر. ولكن إذا كانت تجارة الخوف رائجة في أوروبا، فإن تجارة الغضب أكثر رواجاً منها في مصر، وكأننا ننتظر مثل هذه الحوادث المؤلمة من حين لآخر كي نصب غضبنا على الغرب، يؤلمنا ويحزننا الكثير في داخل بلادنا، ولكن لا يحرك عواطفنا شيء أكثر من إهانة يوجهها الغرب لنا، بالطبع فإن الغضب رد فعل طبيعي ومفهوم على مثل هذه الفاجعة، ولكن المزايدات والمطالبة بعقاب جماعي لكل ألمانيا ومقاطعة بضائعها ليست إلا دليلاً على قلة حيلتنا وعدم فهمنا لأبعاد هذه الكارثة.

ألا نتذكر أن عدداً كبيراً من الألمان قتلوا في مصر أكثر من مرة في هجمات إرهابية على السائحين، ولكن لم يطالب أحد في ألمانيا حينها بمقاطعة مصر أو بوقف السياحة إليها؟ من منا يعرف الطالبة الفرنسية «سيسيل فانيير»؟ إنها أيضا إحدى ضحايا الكراهية والتطرف، وقد لقيت



حتفها في انفجار بحي الحسين قبل شهور من مقتل مروة في دريسدن. لم تخرج المظاهرات بعدها في فرنسا تطالب بالانتقام من مصر ولم تستغل جنازتها لسكب البنزين على النار. مروة وسيسيل هما رمزان لما وصلت إليه علاقة الشرق بالغرب!

اختارت مروة الطريق الصحيح وهو المطالبة بالعدالة، ولكنى للأسف أرى أن الكثيرين في مصر يفضلون أن يسلكوا طريق المتطرف الروسي: العزلة ونظريات المؤامرة وصب الغضب الجماعي على من لا يستحق، وذلك للهروب من مشكلات أخرى ليس لها أدنى علاقة بمروة وقضيتها. بعد قليل نال الجاني عقابه المستحق وسوف ننسى مروة وقصتها عما قريب ونبحث عن ضحية أخرى نتباكى عليها. مثلما حدث في فبراير 2010 حين لقي مهاجران مصريان مصرعهما في الخارج. أحدهما لقي مصرعه في إيطاليا على يد شاب من أمريكا الجنوبية والآخر في السعودية برصاص مراهق سعودي. ويصف الصحفي حمدي الحسيني حالة الإزدواجية التي تعامل بها الإعلام المصري مع القضيتين وصفاً دقيقاً. ففي حين تم تناول قضية «شهيد ميلانو» في كل وسائل الإعلام لعدة أيام، لم ينشر خبر «قتيل السعودية» سوى في سطور بسيطة ببعض الصحف. وفى حين استقبل كبار المسئولين جثة ضحية إيطاليا لم يسمع أحد عن وصول جثمان ضحية الأشقاء العرب. وهذه حالة من حالات كثيرة توضح أن الجاني عندنا أهم من الضحية، لأن ما يحركنا في المقام الأول ليس التعاطف مع الضحية بل الغضب على الجاني!



معركة الرسوم المسيئة للرسول..

أو حوار مع عدو

كان يوم 30 سبتمبر عام 2005 يوماً هاماً في حياتي، فقد عقدت قراني على زوجتي الدنماركية في مصر دون أن أدري أن نفس اليوم شهد فصلاً جديداً من فصول صراع الحضارات. ففي نفس اليوم نشرت صحيفة «يولان بوستن» في كوبنهاجن اثني عشر رسماً كاريكاتيرياً أساء بعضها لشخص النبي. عمت ثورة هائلة أرجاء العالم الإسلامي وانتشرت المظاهرات وأعمال العنف التي راح ضحيتها 150 شخصاً. شعرت عائلتي في مصر بالحزن لأن بلد زوجتي جرح مشاعر المسلمين وأهان الرسول، بينما شعرت عائلة زوجتي في الدنمارك بالحزن لأن المسلمين يحرقون أعلام الدنمارك ويريدون عقاباً جماعياً لبلد بأكمله بسبب جريدة دنماركية لا يقرأها الكثيرون. وهكذا وصل صراع الحضارات إلى غرفة معيشتي. ولكن تضامني كان بطبيعة الحال مع عائلتي المصرية ومع جميع مسلمي العالم، فقد شعرت أيضاً بالغضب من بعض الرسوم ولم أرَ وراءها سوى رغبة واضحة في الاستفزاز. ولكن مع مرور الوقت تحول غضبي من الرسوم إلى غضب على غضب المسلمين من الرسوم. فقد لاحظت أن موجات الغضب هذه صارت تأخذ أبعاداً مرضية لا



علاقة لها بالمشاعر الدينية، بل صارت مثل تفريغ شحنات مسمومة في مياه الشرب.

وفى أغسطس 2008 كنت في زيارة لمدينة كوبنهاجن فطلبت لقاء فلمنج روز، رئيس القسم الثقافي بجريدة «يولان بوستن» وصاحب فكرة وقرار نشر الرسوم. كنت أنتظر أن يأتي إلىّ في حماية الشرطة، ولكنى فوجئت بشاب بشوش يأتي على دراجة. جلسنا بأحد مقاهي كوبنهاجن فدار بيننا حوار طويل استكملناه فيما بعد في الجريدة، وجاء الحوار كما يلي:

*** السيد روز، صحف اليسار بأوروبا تطلق عليك لقب «متعصب متطرف من أجل حرية التعبير» فما قولك؟**

ـ يوشكا فيشر وزير الخارجية الألماني الأسبق هو من أطلق علىّ هذا اللقب بعد نشر الرسوم التي شخصت النبي محمد في جريدتنا. ثم تبنت بعض صحف اليسار هذا اللقب لأنها كانت ضد نشر الرسوم.

*** هل يعجبك هذا اللقب؟ وهل يصف حقيقتك؟**

ـ نعم، أنا متعصب لحرية الرأي ولكن ليس كما يفهم اليساريون. أنا أدافع وبقوة عن حرية الكلمة لأني أؤمن أن العنف يبدأ عندما يتوقف الكلام.

*** ولكن هل يمكن لحرية الكلام أن تكون مطلقة بلا حدود؟**

ـ بالطبع لا.. لا يوجد شيء بلا حدود. نحن دائما بحاجة لحدود ولكن لدينا منها الكثير الآن، ونحن نحتاج لخطوط حمر أقل بقدر الإمكان. لأن كل دكتاتور يستغل الخطوط الحمر ليفرض رأيه على الآخرين. نحن بحاجة للتفاوض حول هذه الحدود فيما بيننا، ولعل



رسوم الكاريكاتير كانت بداية لهذا التفاوض ومؤشرا مهما لحالة حرية الفكر والرقابة الذاتية التي يفرضها الكتاب والفنانون على أنفسهم.

*** إذن كيف نتعامل مع قضية التصادم بين حرية التعبير واحترام مقدسات الغير؟ ومن يمتلك الحق في خلق الخطوط الحمر أو إذابتها؟**

ـ من الممكن أن نعقد مع بعضنا صفقة أن تحترم أنت كل مقدساتي ولا تذكرها بسوء، في مقابل أن أحترم أنا كل مقدساتك ولا أتعرض لها بالسب أو الانتقاد. نظريا هذه طريقة جيدة، ولكنها صعبة التنفيذ على أرض الواقع وتتنافى مع طبيعة البشر. فما أكثرها مقدساتي ومقدساتك ومقدساته، وكم تُستغل هذه المقدسات كذريعة للضغط والابتزاز. وإذا أردنا أن نحيا حياة طبيعية خالية من التشنج فعلينا أن نقلل من الخطوط الحمر لا أن نزيد منها. وعلينا أن ننتبه إلى أن المستبدين يستغلون هذه الخطوط لإسكات معارضيهم.

*** قلت إن العنف يبدأ عندما يتوقف الكلام، ولكن ماذا عن مشاعر الناس التي يجرحها الازدراء والسخرية من الأديان؟ ألا يكون الكلام هنا استفزازا للعنف؟**

ـ الحل ليس أن نشدد قوانين الازدراء، ولكن أن يتعلم الناس أن يأخذوا النقد أو حتى الازدراء ببساطة وألا يسمحوا لمشاعرهم أن تثور على كل كبيرة وصغيرة. أنت لا تستطيع أن تتحكم في ما يقوله الآخرون، ولكن بإمكانك أن تتحكم في رد فعلك على ما يقولون.

*** قلت إنك مقتنع بوجود حدود لحرية الكلام، أين تقع هذه الحدود من وجهة نظرك إذن؟**

ـ من وجهة نظر قانونية يمكن حصرها في ثلاثة حدود:



أولا: الدعوة الصريحة إلى العنف.

ثانيا: تشويه سمعة إنسان عن طريق تزييف الحقائق.

ثالثا: نشر أخبار حساسة عن الحياة الخاصة للأفراد.

وما عدا ذلك فهو مسموح.

*** وماذا عن الدعوة للكراهية أو للعنصرية؟**

ـ لا أعتقد أننا بحاجة لقانون ضد الدعوة للكراهية أو ضد العنصرية، فعلينا دائما أن نفرق بين الأقوال والأفعال. فقط عندما تترجم الأقوال لأفعال يمكن للقانون أن يتدخل. وسأعطيك مثالا: بعد نشر الرسوم وقفت مجموعة من المتظاهرين المسلمين بـ«لندن» أمام السفارة الدنماركية وهم يحملون لافتات كُتب عليها «اقتلوا من يسب الإسلام». من حق المتظاهرين أن يكتبوا ذلك من وجهة نظري، ولكن حينما يلقي أحدهم بعبوة ناسفة داخل السفارة، فلا بد للشرطة أن تتدخل وتعاقبه.

*** أفهم من كلامك أنك ضد تجريم إنكار الهولوكوست في أوروبا؟**

ـ نعم.. أنا ضد أي عقوبة قانونية لمن ينكر الهولوكوست، وقد قلت ذلك من قبل وواجهت انتقادات عنيفة من إسرائيل ومن داخل أوروبا. إنكار الهولوكوست بصفة عامة لا يعتبر جريمة في نظري، ولكن الجريمة أن تصف شخصا نجا من عذاب المعسكرات النازية بأنه كاذب أو مدع، فذلك يدخل تحت بند تشويه السمعة والتشنيع. وبمناسبة موضوع التشنيع، قيل عني في بعض الصحف العربية إني يهودي وهذا غير صحيح.



*** دعنا نعود لموضوع نشر رسوم الكاركاتير.. كيف جاءت إليك الفكرة وماذا كان دافعك من وراء نشرها؟**

ـ في منتصف سبتمبر 2005 كتب الكاتب «بلوتجن» كتابا يسرد فيه قصة حياة النبي محمد في كتاب للأطفال، وقال إنه لم يجد رسام كاريكاتير لرسم النبي، لأن كل الرسامين كانوا يخافون من غضب المسلمين، خصوصا بعد أن اغتال متطرف مغربي المخرج الهولندي «تيو فان جوخ» في عام 2004 لأنه أخرج فيلما ينتقد فيه وضع المرأة في الإسلام. كما ضرب طلاب مسلمون في الدنمارك أستاذا جامعيا غير مسلم ضربا مبرحا لأنه رتل القرآن أثناء محاضرته. وتزايدت الحالات التي أحجم فيها المبدعون عن الإدلاء بآرائهم خوفا من ردود أفعال المسلمين.

لم أكن أعلم ما إذا كان الخوف من المسلمين في الدنمارك مبررا، كما لم أكن أعلم ما إذا كانت الرقابة التي يفرضها الكتاب والفنانون في الدنمارك على أنفسهم بعد مقتل «فان جوخ» مبالغا فيها أم لا. ومن هنا جاءت إليّ فكرة نشر رسم للنبي محمد في صحيفتنا لجس النبض ومراقبة ردود الأفعال. وبعدها عقدنا اجتماعا لأسرة التحرير بالجريدة، اقترحت فيه عمل مسابقة يرسم فيها فنانو الكاريكاتير النبي محمد كما يرونه، ونشرت الأعمال الإثني عشر الفائزة.

*** أي أن المشروع كان مجرد تجربة معملية؟**

ـ يمكنك أن تقول إن نشر الرسوم كان بداية لتقرير صحفي موسع بناء على تحريات ومراقبات طويلة. فقد بينت الرسوم حقيقة كانت غائبة عن الأذهان، وهي أن هناك حالة من التوتر وسوء الظن والخوف تسود



الأجواء. لم تخلق الرسوم واقعا جديدا ولكنها كانت بمثابة «ترمومتر» لجس حرارة الواقع الموجود بالفعل. وهناك مبدأ في الصحافة يقول: لا تقل لي الحقيقة ولكن أرني إياها!

*** وما هي هذه الحقيقة؟**

أولا أن الخوف كان حقيقياً ومبرراً لأن الكثيرين في العالم الإسلامي ردوا بغضب وعنف شديدين. وثانيا أن حرية التعبير في أوروبا بدأت تتآكل بسبب هذا الخوف.

*** هل فوجئت بردود الأفعال في العالم الإسلامي؟**

ـ العالم كله فوجئ. ولكن ردود الأفعال هذه لم تكن تلقائية كما يزعم البعض. لم تأت المظاهرات إلا بعد أسابيع من نشر الرسوم بعد أن سافر بعض رجال الدين الإسلامي المقيمين بالدنمارك إلى بعض الدول الإسلامية وعرضوا الرسوم على المسئولين واشتكوا من أنهم مضطهدون في الدنمارك وهذا افتراء. وأعتقد أنه تم استغلال مشاعر المسلمين الدينية لأغراض سياسية وللفت الأنظار عن قضايا أخرى. هل تستطيع أن تخبرني من أين جاء المتظاهرون في العالم الإسلامي بهذا الكم الهائل من الأعلام الدنماركية لحرقها؟ من حقي أن أعتقد أن هناك تدبيرا مسبقا وراء ذلك؟

*** بمناسبة التدبير المسبق، هناك نظرية أخرى تقول إن الرسوم من تدبير إدارة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، وحيثيات هذه النظرية هي: أن بوش كان بحاجة للحصول على ميزانية إضافية من الكونجرس للحرب ضد الإرهاب وجاءت ردود الأفعال الإسلامية على الرسوم**



لتدعم وجهة نظره من أن المسلمين عنيفون. ثانيا هناك إشاعات عن وجودك في واشنطن قبل نشر الرسوم وبعدها مباشرة، فما قولك؟

ـ أقول إن هناك أناسا لا عمل لهم إلا اختراع نظريات المؤامرة. وهذه هي حيلة من هو غير قادر على الحوار. أنا اتخذت قرار نشر الرسوم من خلال مسئوليتي كمحرر ثقافي وفى نطاق حرية التعبير التي يكفلها القانون، ولست مسئولا عمن استفاد أو تضرر من ذلك. نعم كنت في واشنطن في أواخر 2004 ولكن لتغطية الانتخابات الأمريكية كصحفي. نعم سافرت إلى واشنطن بعد نشر الرسوم ولكن من أجل العمل، ولعلك تعلم أنى عشت في واشنطن لثلاثة أعوام كنت أعمل فيها مراسلاً لجريدة «برلينسكى تيندى».

*** نعم أعلم ذلك، وأعلم أيضا أنك عملت مراسلا لنفس الجريدة في موسكو قبل وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي. فهل أثرت إقامتك فى موسكو على موقفك من حرية التعبير؟**

ـ نعم أثرت فيّ بشكل كبير. فقد رأيت ديكتاتورية الشيوعية وهي تفرض على الناس كيف يفكرون وكيف تراقب تصرفاتهم وتعاقبهم على ما يقولون، وحتى على ما يوجسون في ضمائرهم. وتعلمت أن الصمت لا يزيد الديكتاتور إلا استبدادا. ومن هنا تعلمت ألا أصمت أبدا وأن أقول رأيي صراحة دون أي خوف من العواقب، لأن الخوف من المستبد يزيد من وحشيته.

*** ألا تشعر بالخوف أحيانا ولو للحظات؟**

ـ لا.. ولا أرى داعياً لذلك، بدليل أنى لست تحت حراسة الشرطة، ولكن زوجتي بالطبع خائفة طوال الوقت.



*** قبل نشر الرسوم، كانت الدنمارك تتمتع بصورة إيجابية في ذهن العالم عامة والعالم الإسلامي خاصة. كنا نرى الدنمارك كبلد صغير مسالم وليبرالي. ألا ترى أنك جازفت بسمعة الدنمارك بنشرك للرسوم؟ وهل فقدت الدنمارك عذريتها؟**

- نعم فقدت الدنمارك عذريتها، وهذا حسن. لأن الدنمارك ليس مجتمعا مثاليا، وقد آن الأوان أن يعلم الدنماركيون ذلك. فلطالما كنا نشير بأصابع الاتهام نحو دول أوروبية مجاورة ونتهمها بالتقصير في التعامل مع قضايا المهاجرين وحوار الثقافات، وقد أفقنا بعد نشر الرسوم ورأينا أننا أيضا لم نبذل الجهد المرجو في هذه القضايا.

*** علاقة الدنمارك بالعالم الإسلامي توترت كثيرا بعد الرسوم، فكيف صارت علاقة الدنمارك بالمهاجرين المسلمين الذين يعيشون هنا؟**

- الدنمارك بلد ليست له تجارب استعمارية وهو، على عكس فرنسا وإنجلترا وهولندا، حديث العهد بالهجرة واختلاط الأجناس. كما أن معظم المسلمين في الدنمارك لم يأتوا من أجل العمل بل جاءوا كلاجئين، ولديهم مشكلات كثيرة في التأقلم والتعليم والبطالة. وقد كان من السهل في الماضي أن ندّعى أننا ليبراليون ومسالمون نظريا، ولكن علينا الآن أن نثبت ذلك على أرض الواقع. أثبتت الرسوم أن هناك فجوة كبيرة بين المهاجرين المسلمين والمجتمع الدنماركى، فعلى الرغم من أن المسلمين هنا لم يردوا بالعنف فإن هناك سوء ظن وتوترا واضحين من الجانبين، وعلينا أن نتخذ خطوات واضحة لتخفيف التوتر وكسر العزلة والبحث عن أسلوب أفضل للتعايش.



ولعل قضية الرسوم فتحت باب الحوار بيننا وبين المسلمين مما سيكون له نتائج إيجابية على المدى البعيد.

*** تتحدث كثيرا عن الجوانب الإيجابية، ألا ترى الجانب السلبي؟ وهل لم تندم ولو للحظة واحدة لنشر الرسوم؟**

ـ سأكون كاذبا لو قلت إني أرى أن كل نتائج نشر الرسوم كانت إيجابية. بالطبع تسببت الرسوم في مشكلات كنا جميعا في غنى عنها، ولكنها أبرزت مشكلات أخرى أشد خطورة وعلينا الآن مواجهتها، مثل مشكلة صراع الحضارات. وأنا لا أرى هذا الصراع بين الغرب والإسلام، بل أراه بين كل من يؤمن بالحرية ويسعى لها سواء كان مسلما أو غربيا وبين كل من لا يؤمن بها ويحاربها سواء كان مسلما أو أوروبيا.

*** السيد فلمنج روز، هل سبق لك أن زرت بلدا عربيا من قبل؟**

ـ نعم دُعيت منذ فترة لحضور مؤتمر في قطر، كما سافرت لرام الله لزيارة قبر ياسر عرفات.

*** لو وُجهت إليك الدعوة لإلقاء محاضرة بالقاهرة لتوضيح وجهة نظرك هل ستوافق؟**

ـ سأكون سعيدا جدا، وفى انتظار الدعوة، فكما قلت لك من قبل «العنف لا يبدأ إلا إذا توقف الكلام».

كان من الصعب عليّ أن أتخيل أن هذا الشاب الخجول الذي يتكلم بعقلانية شديدة كاد يتسبب في نشوب الحرب العالمية الثالثة حين نشر الرسوم. لم يغير كلامه نظرتي للرسوم ولكنه غير موقفي من



مفهوم حرية التعبير. تذكرت بعد حديثي مع روز مقولة فولتير الشهيرة «قد لا يعجبني كلامك، ولكني لا أزال مستعداً أن أضحي بحياتي كي تقول رأيك بحرية». نعم لقد كان ذلك موقفي الجديد من الرسوم بعد أن استمعت لكلام روز، وأعلم أن ذلك لن يعجب الكثيرين. ولكنني أدركت أننا نعيش اليوم في عالم لا يمكن أن نحرم فيه التهكم أو السخرية من أي شخص مهما كانت قدسيته وأن الحل ليس صناعة الكمامات وإسكات الأصوات الساخرة، بل أن نتعلم كيف نتعامل مع السخرية بهدوء واسترخاء.

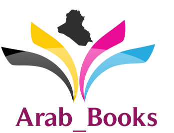
لم ينته الأمر عند ذلك الحد، بل ذهبت إلى مرسم «كورت فسترجارد» صاحب أشهر الرسوم المسيئة للنبي وأجريت معه حواراً للتلفزيون الألماني بعد محاولة اغتياله الفاشلة على يد شاب صومالي يتمتع باللجوء الإنساني فى الدنمارك. تحدثت معه عن صورة النبي والقنبلة العالقة في عمامته وما يقصد بها، فحكى لي قصة الرسام بيكاسو الذي استوقفه جنود النازي وسألوه إذا كان هو من رسم لوحة «الجورنيكا» الشهيرة، فابتسم بيكاسو وقال: «بل أنتم الذين رسمتموها». وكانت عبارة بيكاسو إشارة إلى دور النازيين في الحرب الأهلية الإسبانية التي تعبر لوحة «الجورنيكا» عن بشاعتها. ما أراد فيسترجارد أن يقوله إنه ليس من صور النبي بهذا الشكل ولكن المسلمين المتطرفين الذين يفجرون أنفسهم هم من يعطون هذا الانطباع عن دينهم وعن نبيهم.

ذكرني تشبيه فيسترجارد بحوار دار بيني وبين صديق مسلم حول تلك الصورة حيث قال لي: «أنا على استعداد لقبول هذا الرسم لو كان دون قنبلة»، فرددت عليه حينها: «إذن فانزع القنبلة بنفسك! أليس



الأمر بأيدينا نحن المسلمين؟ ألا يمكن أن ننزع فتيل قنبلة التطرف بأنفسنا بدلاً من أن نبحث عن مبررات وأعذار للأفعال الإجرامية التي تُرتكب باسم الإسلام؟».




Arab_Books

لا ثورة ولا يحزنون..

أو الإله.. الحاكم.. الوطن

نجحت الثورات الفرنسية والإنجليزية والروسية لأنها كانت قادرة على حشد عدد هائل من البشر. كان معظم من ساندوا تلك الثورات الثلاث من العمال والفلاحين، فكان سقوط النظام الأرستقراطي لا يمثل خطراً على أرزاقهم، لأنهم كانوا يعيشون فى عالم آخر غير عالم الطبقة الحاكمة. أما الثورة الألمانية التي جاءت فى عام 1918 فقد باءت بالفشل، لأن المجتمع الألماني كان مدنياً وصناعياً فى ذلك الوقت، كما كانت هناك طبقة متوسطة مستقرة؛ مما جعل الشعب تحت رحمة النظام الحاكم، فالدولة هي التي كانت تمد المواطن بالعمل ومياه الشرب والكهرباء والدواء، وجميع المرافق التي كان المواطن الألماني يستخدمها كانت بأيدي الدولة؛ مما جعل الثورة لا تتعدى إطار مجموعة من المثقفين.

والوضع هنا مشابه لحالة العالم الإسلامي المعاصر. فعلى الرغم من أن الشعوب الإسلامية تعيش في وادٍ وحكامها في وادٍ، فإن تلك الشعوب تعتمد اعتماداً كلياً على حكوماتها في توفير العمل والمواد الغذائية ومتطلبات الحياة كافة. والمواطن المسلم لا يعتمد فقط على



نظام السلطة، ولكنه أيضاً يعتمد على نظام الفكر الديني الذي يعوق فكرة الثورة على الحاكم، وبخاصة في فكر أهل السنة. ولارتباط السلطة بالدين في الإسلام قصة طويلة تبدأ بهجرة الرسول للمدينة.

نجح الرسول في مصالحة الفكر المسيحي بشرائع القانون اليهودي وبعض طقوس وعادات العرب قبل الإسلام مثل طقوس الحج التي لم يغيرها الإسلام. وقد ناسب هذا الخليط مزاج الكثيرين في الجزيرة العربية مما يفسر الانتشار السريع للإسلام فيها بعد الهجرة للمدينة. ولكن كتب السيرة تحاول أن تنكر أي تأثير مسيحي أو يهودي على أفكار الرسول وعلى الطقوس الإسلامية. ففي حين تفرد كتب السيرة والحديث صفحات عديدة عن حياة أشخاص لم يكن لهم ثقل كبير في صدر الإسلام مثل أبو هريرة، نراها تتجاهل أشخاصا ذوي أهمية بالغة مثل ورقة بن نوفل الذي عقد قران الرسول على زوجته الأولى خديجة، وكان هو من أكد لمحمد أنه نبي هذا الزمان بعد أن رأى ما رأى في الغار. وما عدا ذلك لا نجد عن ورقة ما يصف مدى قربه من الرسول وتأثيره عليه، وكأن كتب الإسلام الأولى تعمدت تجاهله.

وقد أفسح ذلك الصمت حول شخص ورقة المجال لاستفحال النظريات حول طبيعة علاقة ورقة بالرسول ودورها في نشأة الإسلام. فقد نشر باحث لبناني يكتب تحت اسم «أبو موسى الحريري» كتاباً بعنوان «قس ونبي» منذ سنوات يدعي فيه أن ورقة كان يريد تأسيس ديانة مسيحية عربية جديدة تختلف عن مسيحية روما والإسكندرية، وكان ورقة بصدد ترجمة الإنجيل العبراني إلى العربية وهو إنجيل لا يعترف بألوهية المسيح ويراه نبياً من أنبياء الله. ويسترسل الكاتب في تكهناته



فيدّعي أن ورقة كان كبيراً في السن ولم تكن لديه القدرة على الخطابة؛ في حين أن محمد كان شاباً له مصداقيته وقدرته على الإقناع. وحسبما يرى الحريري، فإن محمد أيضاً كان ثائراً اجتماعياً وكان موحداً يريد أن يغير مجتمعه في مكة وينهي عبادة الأصنام. وهكذا، يقول الحريري، اختلطت أحلام القس بأحلام النبي واختلطت النصوص فظهرت السور الأولى للقرآن التي كانت تحترم المسيحيين وخصوصا القسيسين منهم. ويعتمد الكاتب في نظريته على جملة واحدة من صحيح البخاري جاء فيها «ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي»، وهي محاولة لإثبات علاقة موت القس بتوقف نزول الوحي على الرسول.

وفي دراسة أخرى صدرت بالألمانية عام 2000 يذهب الباحث الذي يكتب تحت اسم «كريستوف لوكسمبورج» إلى أن نص القرآن يحتوي على عبارات مسيحية سريانية وآرامية قديمة أساء المفسرون العرب فهمها، ويعطي مثالاً على ذلك بكلمة «حور عين» التي يفسرها المسلمون على أنها حوريات الجنة؛ في حين أن معناها بالسريانية هو «عنب أبيض». كما يقارن الكتاب بين سورة «القدر» وترنيمة مسيحية قديمة عن المسيح، ويقول إن المقصود بـ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ليس القرآن وإنما مولد المسيح الذي واكبه نزول الملائكة والروح القدس. ويعطي أمثلة أخرى مثل كلمة فرقان المأخوذة عن كلمة فرقانو السريانية التي تعني «الخلاص»؛ وهو مفهوم مسيحي لم يعرفه عرب الجاهلية. والنظرية النهائية التي يذهب إليها الكاتب هي أن أجزاءً من القرآن مبنية على نصوص مسيحية وأغان شفهية قديمة.

وبغض النظر عن أن مثل هذه النظريات أشبه بفيلم «دافنشي كود»،



فلا بد من مواجهتها بمنهجية وعقلانية، لا بالصراخ واللعنات. فلا يوجد حتى الآن عالم لغوي مسلم واحد تصدى لدراسة «لوكسمبورج» لأنه لا يوجد من يتقن اللغات السريانية والآرامية القديمة بين المسلمين، رغم أنها هي اللغات التي انبثقت عنها اللغة العربية. ولكن اكتفى البعض بوصف الدراسة على أنها إفك وإدعاء، دون حتى أن يقرؤوها. وعلى الرغم من اختلافي مع نتائج تلك الأبحاث، فإنه من الجائز أن أذكر بما كتبه نصر حامد أبو زيد في كتاب «مفهوم النص» أن النص مهما كانت قدسيته هو نتاج ثقافة عصره ويستخدم لغة البيئة المحيطة به ويتأثر بها. فعلى سبيل المثال، عندما يصف القرآن الجنة للمؤمنين نجده يستخدم وصفاً يتوافق مع أحلام العربي الصحراوي، فالجنة بها فواكه ولحم طير وظلال وليس بها شمس. ولو أني وصفت تلك الجنة لصديق نباتي من شمال أوروبا لقال «آسف لا أريد أن أدخل تلك الجنة لأني أحب أن أستلقي في الشمس ولا أحب أكل اللحوم».

بل أذهب إلى ادعاء أن النص القرآني، خصوصا فى الفترة المدنية، كان عبارة عن حوار أو تفاوض بين المؤمنين والرسول، فكانوا يأتون للرسول بأسئلة عن الميراث والزكاة والمحيض وغيرها فيجيبهم الوحي بآيات من القرآن، لذا فنجد أن آيات كثيرة من تلك الفترة تبدأ بـ«ويسألونك عن...... قل.......». وهذا يعني أن المسلمين أنفسهم كانوا طرفاً من أطراف الوحي في المدينة.

ولا شك أن لغة القرآن تغيرت بشكلٍ ملحوظ بعد هجرة الرسول إلى المدينة. فقد كانت خمس قبائل يهودية تعيش فى المدينة وفقاً للقانون اليهودي «هالاخا»، وهي كلمة ترجمتها الحرفية للعربية «شريعة».



ولا شك أن الفكر التشريعي اليهودي أثر بوضوح على فهم المسلمين للشريعة، ففكرة الصوم، وتحريم لحم الخنزير، وتجنب النساء فى المحيض، والتطهر من الجنابة، ورجم الزاني والزانية، والصلاة فى اتجاه بيت المقدس... كلها أعراف يهودية. وقد وصف القرآن اليهود فى البداية بأنهم أهل الكتاب وأشاد بعلماء بني إسرائيل، ولكن بعد أن أخل اليهود بعهودهم مع النبي ولم يقفوا بجانبه ضد أعدائه من مكة تغيرت لغة القرآن تجاههم وصارت تتهمهم بتحريف التوراة ثم سمتهم قردة وخنازير. ثم جاءت بعض التشريعات الإسلامية الجديدة التي كانت موجهة بصورة مباشرة ضد أشغال اليهود مثل تحريم الخمر والربا. ثم تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ وبهذا تحرر الإسلام من التأثير المسيحي واليهودي بعض الشيء وعاد رويداً رويداً لمفهوم القبيلة.

ولكن عندما عاد الرسول إلى مكة فاتحاً لم يقل لأهلها ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قالها حين كان من المستضعفين، بل حطم الأصنام التي كانت حول الكعبة وداخلها وفرض الإسلام على أهل مكة. كما استخدم الفكر القبلي حينما قال «من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن». وهذا يوضح أن النبي كان يتعامل بمرونة مع البيئة المحيطة به وكان يغير استراتيجيته حسب المتغيرات المفروضة عليه. والشيء نفسه ينطبق على نص القرآن الذي كان مرناً وتفاعلياً وقريباً من حياة الناس وقضاياهم، ولم يكن جامداً كما يحب البعض اليوم أن يروه. ولو أننا تعاملنا اليوم بنفس روح المرونة مع النص القرآني ومعطيات العقيدة لتوصلنا لحلول كثيرة قد تصالحنا مع مفهوم الحياة العصرية.



وتوفي الرسول تاركاً قرآناً غير مكتوب وآلاف الأحاديث غير الموثقة التي كانت تعطي للمسلم تعليمات لكل موقف من مواقف الحياة حتى وهو داخل المرحاض. ولكن لا القرآن ولا الأحاديث حسمت قضية الحكم في الإسلام، فلا سمت الخليفة الذي سيحكم المسلمين بعد وفاة الرسول ولا ذكرت شروط توليه الحكم. وكان لذلك أثر بالغ في انقسام المسلمين بعد عدة سنوات من وفاته واختلافهم حول أحقية عثمان بالحكم. واحتدم الخصام في عهد علي بن أبي طالب وانتهى بالفتنة الكبرى وانفصال الشيعة. وقد سببت تلك الحرب الأهلية حالة من الـ«بارانويا» لدى أهل السنة الذين راحوا يفتشون في أحاديث الرسول عن كل ما يؤيد طاعة الحاكم وإن زنى وإن سرق حتى يتجنبوا الفتنة والشقاق.

وقد جاء الفكر السني على هوى سلاطين بني أمية الذين اغتصبوا الخلافة وكانوا في أمسّ الحاجة لمن يضفي الشرعية على حكمهم المبني على مبدأ التوريث ولا علاقة له بالشورى أو بالبيعة. ومنذ ذلك الحين فإن الدعاء للحكام والسلاطين من فوق المنابر جزء لا يتجزأ من صلاة الجمعة. ومع مرور الزمن تطور مبدأ حاكمية الله على الأرض في عهد العباسيين والفاطميين وهو مبدأ كان يعرفه الفرس والمصريون القدماء، ويقول إن الله يحكم من خلال الحاكم الذي يعتبر روح الله أو ظله على الأرض، وهكذا صار اسم الحاكم واسم الله ملتصقين عند بعض السلاطين مثل المعتصم بالله والمنتصر بالله والحاكم بأمر الله. ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، و﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ



﴿لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.. كانت آيات يستخدمها كل حاكم كي يثبت سلطته ويخرس أصوات معارضيه. ربما يفسر ذلك تاريخ الدكتاتورية في بلدان المسلمين وغياب الثورات من أراضيهم عبر التاريخ. ومن ينظر اليوم إلى معظم حكام المسلمين سيجد أنهم يقلدون الإله المعصوم الذي لا يقبل شريكاً فى الملك ولا يُسأل عما يفعل.. يدخل من يشاء في رحمته.. يحيي ويميت.. وهو على كل شيء قدير.

وهكذا صار الدين يُشكَّل على هوى الحاكم فكان الإسلام دين الخلافة في زمن العثمانيين، ثم صار اشتراكياً في عصر عبد الناصر، كما كان دين حرية الملكية الشخصية وصارت فوائد البنوك حلالاً في زمن الانفتاح، وكان دين الجهاد قبل حرب أكتوبر ودين السلام بعد كامب ديفيد. ولكنه لم يكن أبداً دينِ الثورة على الحاكم، إلا فى حالة واحدة فقط فى التاريخ الإسلامي.

سألني قبل ثلاثة أعوام صحفي ألماني عن أقرب الدول الإسلامية للإصلاح الديني والسياسي من وجهة نظري، فأجبت دون تردد «إيران». تعجب الصحفي من جوابي جداً، فقد كان ينتظر إجابة مثل «مصر» أو «تونس» أو «لبنان»، حيث إن هذه الدول تبدو أقرب للحداثة والديمقراطية من دولة ثيوقراطية مثل إيران التي يحكمها معممون باسم الله. تلك الدولة التي ترتبط في أذهان الكثير من الأوروبيين بالإرهاب والسلطوية الدينية وقمع الحريات. عللت إجابتي له بعدة حجج، أولها أن الفكر الشيعي يسمح بالثورة على الحاكم على عكس الفكر السني، فالحركة الشيعية وأفكارها ولدت كثورة.

ثانياً فإن النظام السياسي والنظام الديني في إيران اليوم يمثلان



كياناً واحداً له رأس وله ذيل ويمكن تعقبه والإمساك به، تماماً مثل نظام الـ«إكليروس» الكنسي فى عصور أوروبا الوسطى الذى أسقطه التنوير. أما الإسلام السياسي فى معظم الدول «السنية» فمثل «قرموط» مراوغ يصعب الإمساك به، فله ألوان وأسماء عديدة، فهناك إسلام بن لادن وإسلام الأزهر وإسلام الوهابيين وإسلام الإخوان وإسلام خالد الجندي وإسلام عمرو خالد وإسلام الشيخة ملكة زرار.. و«على كل لون يا باتستا.. لو عايز إسلام إرهابي عندنا، ولو عايز إسلام مستنير برضه موجود، ولو عايز إسلام جهادي ليبرالي ممكن نجيب لك»! ولا توجد مؤسسة دينية مركزية واحدة بفكر ديني واحد يمكن إصلاحها أو تنحيتها عن الحكم. بل إن حاكمية الإسلام السياسي ما زالت حلماً فى معظم الدول الإسلامية التى لم تخض تجربة الدولة الدينية بعد. فيقول الإسلاميون، ويصدقهم الكثيرون، «جربنا الأنظمة الغربية المستوردة، الاشتراكي منها والرأسمالي، وغرسناها في تربتنا فلم تنبت ولم تثمر، وقد آن الأوان أن نغرس في تربتنا ما يتناسب مع درجات حرارتنا». منطق واضح منتهاه أنه لا بديل إلا النظام الإسلامي. أما في إيران فإن حاكمية الله لم تعد حلماً؛ وإنما صارت كابوساً أفاق منه شعب وعدته الثورة الإسلامية طوال ثلاثين عاماً أنهاراً من عسل ولبن.. ولم تبر بوعودها. وقد ضاق شباب إيران ذرعاً بهذه الوعود وصاروا يفكرون بمنطق المصلحة السياسية لا وفق أيديولوجية بعيدة عن الواقع. الإيرانيون أيضاً جيران الأفغان ويرون عن كثب العواقب المأساوية لتولي طالبان السلطة وحكمهم بـ«شرع الله».

وسبب آخر هو علاقة إيران بتاريخها قبل الإسلام، حيث ما زال



الإيرانيون يفتخرون بهذا التاريخ ويطلقون أسماء فارسية قديمة على أبنائهم، فى حين ينظر معظم المسلمين السنة إلى عصور ما قبل الإسلام على أنها عصور جاهلية وظلامية محاها الإسلام بنوره. وعلى الرغم من أن الإيرانيين بدأوا في استخدام الحروف العربية بعد اعتناقهم للإسلام؛ فإنهم احتفظوا بلغتهم الأصلية ورفضوا تعريبها؛ مما سمح لهم بالاحتفاظ بتراثهم القديم. وكانت أول الأعمال التي كتبها الفرس بعد اعتناقهم الإسلام هو كتاب «الشاهنامة» الذي يمجد تاريخ ملوك الفرس القدامى، وكان أول ما ترجموا للعربية نصوص زرادشتية قديمة. ومن ناحية أخرى توغل الفكر الصوفي فى إيران وهو فكر غير سلطوي ويسمح بالتفاوض مع معطيات الإيمان. وبذلك أصبحت منزلة شعراء الصوفية مثل جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي وفريد الدين العطار أشبه بمنزلة الأنبياء، فأعطى ذلك عمقاً جديداً لقضايا الفقه والفلسفة.

وأحد الفروق الهامة بين إيران والعالم العربي هو أن التعليم تتطور بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة في إيران، حتى بعد ثورة الخميني، مما خلق مجتمعاً مدنياً راسخاً. واليوم تلعب الآداب والفنون والفلسفة دوراً هاماً في المجتمع الإيراني. حتى علوم الفقه والتفسير وصلت إلى مرحلة قد نحلم بها فى العالم العربي. ومن بين أهم الباحثين في مجال العلوم الإسلامية اليوم في إيران الدكتور عبد الكريم سروج الذي التقيت به في مؤتمر بمدينة هايدلبرج الألمانية عام 2004. وعلى الرغم من أن سروج كان أحد أهم منظري الثورة الخمينية، فإنه اليوم يأخذ اتجاهاً آخر غيرها، فيفرق بين الدين من ناحية وما يفهمه الناس على أنه الدين من ناحية أخرى، فيقول إن المعرفة التي يجمعها الناس عن الدين ليست



مقدسة ويمكن نقدها ونقضها، ويقول إن الإيمان الحقيقي هو الإيمان في ظل الديمقراطية، لأن الإيمان بلا حرية في الاختيار هو إيمان زائف ولا قيمة له. وسروج ليس وحده في هذا الاتجاه بل يدعمه الكثيرون من الشباب وحتى من رجال الدين في إيران.

أما السبب الأخير، فهو موقف الغرب من إيران، ولا أقصد هنا فقط السياسة الغربية المعادية للنظام الإيراني أو الإعلام الغربي الذي يضع إيران وضغوط الإصلاح فيها في بؤرة الضوء بصفة مستديمة؛ وإنما أريد التركيز على الإيرانيين في المهجر الذين يختلفون عن المهاجرين السنيين كثيراً، فهم ليسوا منشغلين بأنفسهم ولا يستغلون الديمقراطية الغربية في المطالبة ببناء المساجد أو رفع الأذان أو السماح بالذبح على الطريقة الإسلامية، كما يفعل معظم المهاجرين المسلمين العرب. ولكن يستثمر إيرانيو المهجر جهودهم في دعم التيار الإصلاحي في إيران مادياً وإعلامياً. هم في الغرب لا يخرجون للتظاهر ضد رسوم كاريكاتير مسيئة للرسول، أو تنديداً بالاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، لأنهم يعلمون أنهم لن يستطيعوا أن يغيروا الغرب أو إسرائيل بمظاهراتهم، ولكنهم يتظاهرون أمام السفارات والقنصليات الإيرانية في الغرب لإحراج النظام الإيراني والضغط عليه. هناك أيضاً فرق جوهري بين المهاجرين الإيرانيين وسواهم من مسلمي المهجر، وهو أن الإيرانيين ينتمون في الغالب لطبقة اجتماعية وتعليمية راقية؛ مما يجعل لهم وعياً سياسياً أكثر نضجاً.

اتصل بي الصحفي الألماني مرة أخرى بعد اندلاع الثورة الخضراء في إيران وهنأني على صدق نبوءتي وطلب مني أن أكتب مقالاً أربط



فيه بين زيارة أوباما للقاهرة وما يحدث في إيران. وجدتها فرصة جيدة لإعادة النظر في آرائي السابقة، حيث إنني أغفلت في تحليلي للموقف قبل ثلاث سنوات نقطة هامة وهى دور الولايات المتحدة في لعبة الديمقراطية في منطقة الشرق الأوسط، فالقوة العظمى تدعم الإصلاح في إيران، ليس محبة لشعب إيران وإنما رغبة في تنحية النظام المعادي لها، ولكنها أيضا تدعم النظام المصري والسعودي البعيدين كل البعد عن الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان أيضاً من أجل مصالحها.

ولكني لا أرى مؤامرة أمريكية خلف هذا الدعم، وإنما صدّقت أمريكا كذبة يروجها النظامان المصري والسعودي، وهى أن البديل لهما هو قفز الإخوان في مصر والوهابيين في السعودية نحو السلطة مما سيضر بمصالح الولايات المتحدة وسيؤدي إلى زعزعة الاستقرار في المنطقة إلى آخر «الأسطوانة المشروخة». ويستشهد النظامان بالانتخابات الجزائرية التى جاءت بالإسلاميين والانتخابات الفلسطينية التي جاءت بحماس كخيار للشعوب العربية ويستخدمانها كـ«بعبع» في وجه كل من يطالب بالديمقراطية. ما لم تَعِهْ أمريكا وما لا نريد نحن أن نعيه هو أن الإخوان والوهابيين قفزوا نحو السلطة بالفعل وتمكنوا من عقول وقلوب الشباب وتغلغلوا في مؤسسات الدولة واحتلوا الفضاءات العامة بفكرهم ومنطقهم السياسي ولم يكتفوا بدور المعارِض.

فمن الغباء إذن أن نراهم كبدائل للسلطة بعد أن صاروا بالفعل شركاء فيها، وصار كل منهما يقوي من سلطة الآخر، ومن الغباء أن نرى فيهم أملاً بعد أن صاروا ورقة مستهلكة. فإذا كانوا هم الأمل في مستقبل أفضل فلست أدرى كيف يكون شكل اليأس؟!



من حق أمريكا أن تبحث عن مصالحها، ومن الطبيعي أن تنخدع بهذا المنطق السياسي المعوج، ولكن من السذاجة أن نقبل نحن هذه المعادلة ونستكين لها. فالطريق إلى الديمقراطية لا يمكن أن يكون مصحوباً بالجُبن أو حتى بالحذر، فحتى لو جاءت الانتخابات الحرة بالإخوان ليمكثوا فوق صدورنا ثلاثة عقود من الزمان قبل أن يفيق الشعب من سكرته، فهذا ثمن زهيد جداً؛ مقارنة بما دفعته أوروبا في طريقها نحو الديمقراطية. فالديمقراطية الحقيقية هي سيرورة طويلة من المحاولة والإخفاق، وهى أقوى من حسابات أمريكا أو استراتيجيات نظام عجوز متهالك. ولكن هل مازال لدينا ثلاثون عاماً أخرى لنجرب؟ ألم نفقد الكثير من الوقت بالفعل في تجارب فشلت جميعها ورمتنا قروناً للوراء؟

السؤال هنا: أين هذا الخيار الثالث؟ أين هذا التيار الإصلاحي في مصر وفى العالم العربي القادر على قراءة اللحظة التاريخية واللعب بحرفية في أروقة السيرك السياسي؟ مَن القادر على تعبئة ثورة بيضاء حقيقية تأتي بتغيير حقيقي وليس مجرد دهان واجهة نفس البيت الآيل للسقوط بلونٍ آخر؟



زنا محارم ثقافي..
أو مدينة حرة بلا حرية

ساقتني قدماي ذات يوم إلى حي مغلق في إحدى العواصم الأوروبية، ففهمت بعدها مأساة العالم الإسلامي المعاصر أكثر. لا، لم يكن أحد الأحياء التي يسكنها المسلمون حيث انتشرت جرائم العنف والمخدرات مثلما في ضواحي باريس وبرلين وبرمنجهام وروما، وإنما كانت مستوطنة يسكنها أوروبيون يعيشون في عزلة عن العالم الخارجي. إنها مدينة «كريستيانيا الحرة» التي أعلنت استقلالها عن الدنمارك من جانب واحد عام 1971 بعد أن احتل مجموعة من الشباب اليساريين بعض الثكنات العسكرية وسط كوبنهاجن. قالوا إنهم ضد الرأسمالية والاستهلاك واغتصاب البيئة، ولذلك قرروا أن يعيشوا بأسلوب حياة مختلف لا يعتمدون فيه على الدولة ومؤسساتها. ومن يومها صارت كريستيانيا واحة للحرية التامة بلا قانون ولا شرطة. يعيش فيها قرابة ألف شخص وفق مبدأ الاكتفاء الذاتي فلا يدفعون ضرائب للدولة ولا يستفيدون من خدماتها (على حد قولهم). كل شيء مسموح في كريستيانيا إلا التصوير والجري وذلك لسبب وجيه، فكريستيانيا أصبحت أكبر وكر لتجارة المخدرات في الدنمارك ورجال الشرطة لا يستطيعون دخولها إلا متنكرين.



وأثناء وجودي في كوبنهاجن زارني هناك صحفي ألماني من مجلة «دير شبيجيل» يدعى «هنريك برودر» لإجراء حوار معي عن روايتي «وداعاً أيتها السماء» التي صدرت بالألمانية في 2009، فاقترحت عليه أن يذهب معي لزيارة كريستيانيا، وهو اقتراح ندمت عليه كثيراً فيما بعد. هنريك صحفي مخضرم ويحب المغامرات ويعرف كيف يستخلص تقريراً صحفياً مميزاً، وقد شم عند أسوار كريستيانيا إمكانية إجراء سبق صحفي هناك. دخلنا من بوابة المستعمرة التي رُفع عليها علم آخر غير علم الدنمارك وكُتب عليها «هنا تنتهي حدود الاتحاد الأوروبي». معظم بنايات المستعمرة من الخشب وكذلك الأكشاك التي يبيع فيها تجار المخدرات بضائعهم علناً. كانت المدينة مليئة بشباب وعجائز من الجنسين لا يربطهم إلا شيء واحد، وهو أن جميعهم كانوا إما تحت تأثير المخدرات أو الكحول أو كليهما معاً. لم يعترف هنريك برودر بلافتات «ممنوع التصوير» المنتشرة في كل مكان بالمستعمرة وراح يصور تجار المخدرات وزبائنهم، حتى التفت حوله مجموعة من ذوي العضلات المفتولة وطلبوا منه أن يريهم الصور، ولكنه رفض فانهالوا عليه ضربا ومزقوا بنطاله وأخذوا منه الكاميرا وألقوها في برميل به نار مستعرة (وهذا مخالف لتعليمات حماية البيئة التي ينادي بها سكان كريستيانيا).

وقد نالني - والحمد لله - من الحب جانب وأصبت بكدمات في اليد والصدر وأنا أحاول الدفاع عنه. كانوا على درجة من الكرم، فلم يفتحوا علينا المطاوي؛ بل اكتفوا بطردنا من المستعمرة وحذرونا من العودة مرة أخرى. توجهنا لأحد أقسام الشرطة خارج كريستيانيا وقدمنا بلاغاً بالواقعة، ولكن رجال الشرطة رفضوا الذهاب معنا للمستعمرة



للتعرف على من ضربوا هنريك وأحرقوا كاميرته، وقالوا إن الشرطة تحتاج لخمسين فرداً مسلحاً للدخول لكريستيانيا، وهم لا يفعلون ذلك إلا في حالات جرائم القتل. لم يتبق لهنرك إلا نشر تفاصيل هذه المغامرة على موقع صحيفة «دير شبيجيل». وفي اليوم التالي نشرت الصحف الدنماركية الخبر وطالبت بإغلاق «كريستيانيا» وتحطيم منازلها.

حاولت بعد تلك الحادثة أن أجمع معلومات عن كريستيانيا وتساءلت كيف أن مدينة بُنيت على مبدأ الحرية والتضامن ينتهي بها المطاف لتصبح واحة للعنف تسيطر عليها عصابة من تجار المخدرات. كيف أن الذين أرادوا أن يخلقوا بديلاً للنظام الرأسمالي الاستهلاكي قد صاروا اليوم عالة على هذا النظام، حيث يعيش معظمهم إما من تجارة المخدرات أو على المعونات الإجتماعية التي تقدمها لهم دولة الدنمارك. التقيت بمُدرّسة اسمها «بينتا» تعيش في كريستيانيا لأستفسر عن أسلوب حياتهم. حكيت لها ما حدث مع تجار المخدرات هناك فقالت لي إني رأيت جانبا واحدا من كريستيانيا وهو أسوأ الجوانب أما باقي المكان فهو مثل جنة على الأرض يأكل كل سكانه مما غرست أيديهم ويتضامن أهله مع بعضهم ويساعدون كل محتاج. وما تجار المخدرات إلا قلة قليلة يستغلون الحرية المطلقة وغياب الشرطة.

«ولكن الجميع يدخنون الحشيش»، قلت لها.

«نعم.. ولكن الحشيش ليس من المخدرات، بل وسيلة للسمو بالروح.. البعض يحتاج الرياضة والبعض يتجه للفن وآخرون يفضلون الحشيش للبحث عن ذواتهم»، قالت بإصرار.



وعن سؤالي لها كيف يفضون نزاعاتهم في غياب الشرطة قالت «بمبدأ الشورى» عن طريق اجتماع لكل سكان المستعمرة والنقاش حتى التوصل لقرار بالإجماع. وأقسى العقوبات التي يفرضها سكان كريستيانيا على الجاني هي النفي إلى الأبد.

لا أستطيع أن أدعي أن كلام «بينتا» عن كريستيانيا غير وجهة نظري عنها، ولكنه زاد من فضولي الملعون حد أن أزور المكان مرة أخرى، وهذه المرة لم يحدث شيء لأني ابتعدت عن الشارع الذي يبيعون فيه المخدرات. شاهدت منازل ريفية وحدائق جميلة وحياة شبه طبيعية، ولكني كنت لا أزال أرى ظلال كهف أفلاطون في كل مكان.

بعد يومين زرت مكتبة في حديقة القصر الملكي. مكتبة غريبة فعلا.. كل كتبها عبارة عن بشر.. يمكنك استعارة كتاب لمدة نصف الساعة وتتركه يحكي لك قصة حياته ثم تسأله عن كل ما يجول بخاطرك قبل أن تعيده إلى الرف وتستعير كتاباً بشرياً آخر. رجل شرطة، عاهرة، سمسار عقارات، مدمن مخدرات، مثلي جنسي، قس، امرأة مسلمة، لاجئ سياسي، راقصة استربتيز ورجل معوق وعشرات الآخرين.. كلهم جاءوا كي يحكوا قصتهم ويخبروا كل من يريد عن طبيعة وظائفهم وظروف حياتهم اليومية.

«مرحبا بالأحكام المسبقة».. هذا هو شعار المكتبة.

«نيم» ينتمي إلى ذلك النوع من رجال الشرطة الذي تتمنى أن يقبض عليك: بشوش ومثقف و«مش شايف نفسه». بدأ حياته العملية مساعدا للعجائز بإحدى دور المسنين ثم تقدم لأكاديمية الشرطة وتخرج وعمل



ضابطا بكوبنهاجن. يقول «نيم» إنه يحب عمله كثيرا، وخصوصا أن كوبنهاجن مدينة مسالمة، ولكن هناك حيّين بالمدينة يسببان قلقا مستمراً لرجال الشرطة ولباقي سكان كوبنهاجن. الحي الأول هو «كريستيانيا»، الذي صرت أعرفه جيداً، والحي الآخر هو «نوري برو» ومعظم سكانه من المهاجرين المسلمين. «99 فى المائة من هؤلاء المهاجرين مسالمون وطيبون»، قال «نيم»، ولكن فقط سبعين شخصا من الشباب التركي والعربي يشكلون عصابة ويبتزون سكان الحي ويرهبونهم ليل نهار. فهم عاطلون نشأوا بلا تعليم وبلا قدوة حسنة. عائلاتهم وكذلك الحكومة الدنماركية تركوهم بلا سند فانحدروا إلى عالم الجريمة. ليس من العجيب أن تكون قدوتهم الوحيدة تجار المخدرات والمجرمين من المهاجرين، لأنهم الوحيدون في الحي الذين يركبون المرسيدس ويمتلكون الأموال فيما يعيش معظم سكان الحي على معونات الدولة الاجتماعية. وقد تم تقسيم هذا الحي لجزءين يفصلهما شارع واحد: الجزء الأول يسكنه الدنماركيون وميسورو الحال من المهاجرين، والجزء الثاني يسكنه من لم يسعفهم الحظ من المهاجرين فعاشوا تحت رحمة سبعين رجلا يتقاضون منهم الإتاوات ويبيعون المخدرات.

«ليس غريبا أن ينحرف شباب في ظروف مثل هذه، ولكن الغريب أن يسمح آلاف من البشر لشرذمة صغيرة منهم أن تتحكم في مصائرهم وتجعلهم يعيشون في رعب»، قال ضابط الشرطة. أخبرته أني أريد زيارة هذا الحي، فحذرني ألا أفعل، ثم نصحني إذا سرت في شوارع الحي ألا أرفع عيني فى عين أحد من الشباب الواقف على النواصي وإلا جاءوا وطعنوني على الفور.



رحت أفكر في قصة حي نوري برو وكريستيانيا وأبحث عن أوجه الشبه بينهما، وتوصلت إلى أن عزلة أي مجموعة من البشر عن باقي المجتمع تؤدي إلى ما يشبه زواج الأقارب أو حتى زنا المحارم، حيث لا ينتج عن ذلك الزواج سوى أطفال مشوهين أو مرضى ذوي جينات ضعيفة. العزلة تؤدي إلى الخوف أو سوء الظن بالآخر. والهروب إلى العزلة باسم الحرية لا يؤدي في النهاية سوى إلى مزيد من القيود والأعراف التي قد تصل لدرجة العبودية. معظم سكان نوري برو وكريستيانيا بالفعل مسالمون وطيبون، ولكنهم فاقدو الإرادة ولا يتعاملون بوعي مع مصائرهم، ولذلك تسيطر عليهم عصابة صغيرة من المجرمين..

ألا يذكرنا ذلك بما يحدث في عالمنا الإسلامي؟



أقفاص ودواجن..

أو حكاية بنت اسمها وفاء

منذ قرار سويسرا بحظر بناء المآذن لم نقرأ شيئاً إيجابياً عن هذا البلد فى الصحف العربية. لذلك أصابتني الدهشة حين قرأت على موقع صحيفة «الوطن» السعودية في مارس 2010 مقالاً للكاتب تركي الدخيل يمتدح فيه حماية الحيوان فى سويسرا. ويحكي المقال قصة محام في مدينة زيورخ يدعى «أنطون» وظيفته الدفاع عن الحيوانات في المحاكم السويسرية. ويبرر أنطون عمله كمحام للحيوانات بقوله «إن معنى العدالة هو أن تدافع عن هؤلاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم». كان مقال الدخيل من ناحية مديحاً لبلد لا يحب أحد من المسلمين أن يمتدحه؛ ومن ناحية أخرى نداءً لمراعاة حقوق الإنسان فى بلد لا يحب المسلمون أن ينتقدوه.

كانت معظم التعليقات على مقال الدخيل خفيفة ومضحكة، وبين تلك التعليقات كتبت امرأة سعودية «ليتني كنت بقرة في سويسرا!».. قد يبدو هذا التعليق فكاهياً للبعض، ولكن في الحقيقة فإن وراءه مأساة حقيقية. إن رغبة امرأة سعودية في أن تنال بعض حقوق البقر في سويسرا شهادة فقر لأغنى دولة عربية. ففحوى تعليق السيدة السعودية



قد يصبح جلياً إذا نظرنا إلى وضع النساء في هذا البلد الذي يرى نفسه قلب العالم الإسلامي. فليست فقط حرية المرأة السعودية في التعليم والحركة والتعبير عن الرأي تُداس يومياً بالأقدام باسم الدين والقانون، وإنما أيضا تتعرض 93% من النساء السعوديات لجميع أنواع العنف الأسرى، حسب دراسة سعودية حديثة. لذا فليس من جانب الصدفة أن تحتل المملكة أحد آخر المراكز في تقرير المنتدى الاقتصادي العالمي عن حقوق المرأة لعام 2009. في الواقع فإن جميع المراكز الأخيرة تقريباً كانت محجوزة للدول الإسلامية. فقط دولة «بينين» الأفريقية نجحت في أن تحتل مكانا متأخراً بين الأشقاء العرب والمسلمين. احتلت اليمن المركز الأخير بجدارة بين 134 دولة، وجاءت باكستان في المركز 132، بينما احتلت السعودية المرتبة 130، وتلتها تركيا 129، ثم إيران في المرتبة 128، في حين احتلت مصر مركزاً «مشرفاً» هو 126. ولم يدرج التقرير ثلاث دول تطبق فيها الشريعة الإسلامية وتتعرض فيها المرأة لأبشع أنواع الاضطهاد وهي الصومال وأفغانستان والسودان. وجاءت إندونيسيا في المركز 93 واحتلت بذلك مرتبة أفضل دولة إسلامية في مجال حماية حقوق المرأة، ولكنها مع ذلك أسوأ من دول كثيرة أكثر فقراً وجهلاً.

يؤكد التقرير أن أكثر من نصف مليار امرأة مسلمة تتعرض يومياً لجميع أنواع التميز والاضطهاد وتضييق الخناق. وتؤكد جميع تقارير منظمات حقوق الإنسان الدولية والخاصة هذه الإحصائيات، وتحذر من أن وضع المرأة في المجتمعات الإسلامية يهدد مستقبل التعليم والاقتصاد فيها. وهنا يطرح سؤال هام نفسه بهذا الصدد: كيف يمكن



لمجتمع أن يلحق بركب التقدم في حين أن نصف أفراده يعوق النصف الآخر عن اختيار أسلوب حياته بنفسه؟

لا أريد أن أتحدث عن قضايا الرجم والجلد والمصائب الأخرى التي تتعرض لها النساء في بعض البلدان الإسلامية، ولكني أريد أن أسرد قصة بنت مصرية أعرفها جيداً، لأني أرى في قصتها مثالاً حياً لأنواع العنف الاجتماعي التي تتعرض لها المرأة المسلمة.

لم تبلغ وفاء عامها السادس عشر بعد، ولكنها تحمل طفلاً على كتفها. بعد كل جملة تنطقها تبتسم ثم تنظر إلى الأرض في حياء. في السنوات القليلة الماضية مورست ضد وفاء ثلاث جرائم بشعة، ولكنها ما زالت تبتسم. أيضاً ما زال والدا وفاء يبتسمان، لأنهما لا يعيان بعد كيف أنهما دمرا مستقبل هذه البنت. فالعنف الجسدي والاجتماعي في النظام الذي ولدت فيه وفاء شيء أكثر من عادي.. العنف صار مثل الماء والهواء، حتى إن بعضهم يستغرب عندما يتساءل أحد عن جدوى هذا العنف. أنا أعرف وفاء جيداً، فهي ابنة أختي وقد شهدت ميلادها بنفسي وكنت أول من حملها على ذراعي. أطلقوا عليها اسم وفاء، فصار هذا الاسم قَدَراً قاسياً عليها لا تستحقه. كانت طفلة يقظة وتتمتع بقدر غير عادي من الذكاء، وكانت أفضل طلاب مدرستها. كانت فرصها في الحصول على تعليم ممتاز مكفولة، خصوصا أن والدها مدرس ميكانيكا بإحدى المدارس المهنية، وأمها على قدر جيد من التعليم. وخالها (العبد لله) يعمل مدرساً بإحدى الجامعات الألمانية ووعدها بأن يساعدها في أن تستكمل دراستها في أوروبا لو استمرت على تفوقها. كانت وفاء تحب أن تتحدث إلى خالها باللغة الإنجليزية وكانت عيناها تبرقان بالسعادة



حين تنطق بجملة صحيحة وكأنها كانت ترى نفسها في قاعة محاضرات بجامعة أوروبية. ولكن القدر قرر غير ذلك.. لا لم يكن القدر، بل الغباء الاجتماعي واللامبالاة هما اللذان حالا دون مستقبل أفضل لوفاء.

بدأت القصة منذ عدة سنوات حين كنت في زيارة لمسقط رأسي في إحدى قرى الدلتا. زرت بيت أختي فرأيت وفاء مستلقية على السرير تنظر إلى السقف ولا تتكلم. نظرت إليّ نظرة شاردة مكسورة ثم واصلت مراقبة سقف الغرفة. لم يجرؤ أحد أن يحكي لي ما حدث، لأنهم يعرفون موقفي من تلك الجرائم التي يسمونها عادات أحيانا أو سنن أحياناً أخرى. ولكن أخي الأصغر حكى لي أن أسرة وفاء قامت بختانها قبل أسبوع، وأنها ما زالت تعاني من آلام النزيف حتى اليوم ففقدت شهيتها للطعام والكلام على السواء.

«طيب وإيه يعني؟ ما هو دا بيحصل لكل البنات».. لعل ذلك هو ما يدور برأسك الآن عزيزي القارئ.. لعلك تسخر من سذاجة هذا المصري المتمدين القادم من أوروبا بأفكار جديدة غريبة. في الحقيقة إن استغرابك وسخريتك عزيزي القارئ هما لب القضية. وقولك إن ما حدث لوفاء «أمر عادي» هو أساس المصيبة. فقد اعتدنا على تكرار الأخطاء حتى صرنا نظن أنها فضائل.

منذ أيام دراستي بالقاهرة وأنا أحاول إيقاف هذه العادة الخبيثة في محيطي الأسري في القرية، ولكن عائلتي حينها لم تنصت لي وظنت أن القاهرة قد أفسدت رأسي. وها أنا اليوم عائد من أوروبا، وهو سبب أقوى لعدم الإنصات لآرائي. وبعد عامين عدت فى زيارة أخرى للقرية



ففوجئت بأن ابنة أخي الأكبر تعرضت لنفس الختان وكادت تموت بسبب النزيف الشديد. شعرت بقلة الحيلة والعجز وشعرت بغضب شديد. أحسست أن تدريسي لطلاب ألمان في جامعة ألمانية لا قيمة له إذا لم أفعل شيئاً على الأقل في أسرتي.

قمت على الفور بالإعداد لمؤتمر عن موضوع الختان في القرية ودعوت إليه المؤيدين والمعارضين ممن يعرفهم ويحترمهم أبناء القرية. لم أرغب في تلقين أبناء قريتي درساً، ولكني فقط كنت أسعى للحوار حول موضوع لا يفتحه أحد. لبى الدعوة الدكتور عبد الله سمك من جامعة الأزهر، والدكتورة ملكة زرار أستاذة الشريعة والقانون، والدكتورة حنان يوسف المذيعة بالتلفزيون المصري. ومن أبناء القرية حضر طبيب أمراض نساء وعضو مجلس شعب. وبعد إلحاح تمكنت من اقناع أبي بالجلوس على المنصة بصفته إمام المسجد. كانت قاعة المؤتمر مكتظة بالحضور وتسللت بعض النساء وجلسن في أحد الأركان. كان الجو متوتراً منذ البداية، وبدا على الكثيرين من الرجال أنهم ضد فكرة النقاش من الأساس. حدثت بلبلة بين الحضور قبل بداية المؤتمر وراح الناس يتساءلون من الذي يمول هذا المؤتمر وما علاقة الغرب به؟ الشك الأزلي تجاه أي خطوة جديدة والخوف من أن يكون الغرب وراء كل شيء كادا يؤديان إلى فشل المؤتمر قبل أن يبدأ. كان من الصعب على الحاضرين فهم أن المؤتمر مبادرة شخصية مني، وأني الممول الوحيد له، ولم يساعدني في تنظيمه إلا أخي الأصغر وصديق من القاهرة. «وهي البلد ما فيهاش مشاكل تانية غير الختان يعني؟»، تساءل أحد شباب القرية.



افتتح أبي المؤتمر بتحية الضيوف وقال إنه لن يلعب دور رجل الدين في المؤتمر وسيترك الفتوى للشيخ عبد الله سمك، ولكنه أراد أن يدلي برأيه الشخصي قائلاً إنه يعتقد أن الختان ظلم في حق النساء، وأنه عادة وليس عبادة. تحدث الطبيب عن أخطار الختان الصحية والنفسية والاجتماعية، وقال إنه يؤدي إلى البرود الجنسي، وهو أكبر خطر على الحياة الزوجية وسبب الطلاق الحقيقي لمعظم الزيجات، ولكن الناس تتجنب الحديث عن ذلك صراحةً. أيدت الضيفتان رأى الطبيب، ثم جاء الدور على الشيخ الأزهري فقال إن الرسول أيد الختان، لذا فهو مستحسن إن لم يكن فرضا، ولكنه فرق بين الإخفاض وتشويه الأعضاء التناسلية للمرأة وهو ما لا يقبله الإسلام. محا كلام الشيخ الأزهري كلام أبي والطبيب وكلام السيدتين، وضجت القاعة بتصفيق حاد وكأن الجمهور انتصر في معركة أخلاقية. كنت أحاول فقط أن أدير الحوار دون أن ألقي كلمة، ولكني حين سمعت كلام الشيخ واستحسان الناس له أصابني الغيظ، فوقفت وطرحت السؤال التالي على الحضور: «لو أصيبت إحدى بناتكم بنزيف حاد أثناء الختان، هل ستذهبون بها للطبيب أم للشيخ الأزهري؟».

لو أن طبيباً تجرأ وأفتى في أمور الصلاة أو العقائد لألقى الناس عليه اللوم، ولكن لماذا لا يثور أحد حين يفتي رجال الدين في أمور الصحة والمال والزراعة؟ لماذا لا تغضب النساء أن يفتي رجلٌ على أجسادهن وهو لا يعرف عنها شيئاً. كانت كلمة واحدة من رجل الدين كافية لتعطيل كل حجج المنطق وإلغاء آراء الخبراء في المؤتمر. لم يقتنع أحد بحقيقة أن الختان عادة إفريقية قديمة انتقلت إلى مصر من خلال تجارة بين مصر



والصومال أيام الفراعنة. وأنه لو كانت هناك علاقة بين الختان والإسلام لكانت السعودية أول دولة تمارس الختان، ولكن كلما ابتعدنا عن الصومال قلّت نسبة الختان بين الإناث، ففي المغرب وإيران وإندونيسيا لا يعرف أحد شيئاً عن هذه العادة. ولكن التاريخ قد أثبت أن أي عادة تؤدي لقهر النساء يتم استيرادها بسهولة وسرعة فائقة، في حين تحتاج كل فكرة لتحرير النساء إلى سنوات وربما قرون.

لم يحقق المؤتمر نجاحاً يُذكر بين أبناء القرية، ولكنني كنت أتوقع ذلك. كان النجاح الوحيد أن أبي وعدني بأنه لن يسمح بختان أي طفلة في أسرتنا بعد اليوم.

حصلت وفاء على مجموع رائع في الإعدادية والتحقت بالمدرسة الثانوية. وكان كل شيء يشير إلى أنها تتجه نحو مستقبل مشرق، ولكن ذات يوم رآها رجل عمره 32 عاماً في طريقها للمدرسة فوقع في غرام خطواتها الطفولية. تقدم للزواج بها وهي لا تزال في الرابعة عشرة، فوافق أبوها فوراً، فقد امتلأ بيته بالأطفال وكانت زوجته حاملا مرة أخرى. «عادي جداً.. وأين الجريمة في ذلك؟».. أضبطك متلبساً بهذا التساؤل من جديد عزيزي القارئ، فلعلك اعتدت على سماع مثل هذه القصص، أو ربما زوجت ابنتك وهي لا تزال طفلة لمن هو في عمر أبيها، أو ربما كنت أنت هذا الزوج. فأنت بالطبع مقتنع أن الرجل يجب أن يتزوج بكراً على غير دراية ودون خبرات حتى يشكلها مثل العجينة حسب هواه. ألم تسأل نفسك يوماً ما هو العيب أن تعيش المرأة حسب هواها هي لا هواك أنت؟ أليس من الأفضل أن يوافق هواها هواك وتوافق أفكارها أفكارك من أن تحتجزها رهينة وتفرض عليها هواك وأفكارك؟ المصيبة



هي أن مثل هذه الممارسات صارت اعتيادية وصارت لا تثير غضبنا أو أستياءنا. ومع ذلك مازلنا نتساءل جميعاً: أين الخلل في بلادنا؟ ألا يبدأ الخلل حين نعبث بجسد طفلة ونقطع من عصبها الحي ثم نحرمها من الدراسة ونلقي بها في أحضان جسد جائع لا يراعي طفولتها؟ ألا تبدأ المأساة من هنا؟

السكوت علامة الرضا. كانت وفاء وفية كما توقعها أبوها ولم تعترض. تركت المدرسة وأصبحت «زوجة» رغم أن قوس طفولتها لم يكتمل بعد. تزوجت بلا عقد قران، لأنها لم تبلغ السن القانونية بعد، ولكن سنة الله ورسوله كانت عوضاً عن القانون.

كانت وفاء حساسة أكثر من اللازم فلم تحتمل العنف الجسدي والجنسي ممن اشتراها، ففرت بعد شهر واحد إلى بيت أبيها، ورغم إلحاح أسرتها عليها للعودة، رفضت وطلبت من أبيها أن يعيدها إلى المدرسة. ولكن القدر أراد غير ذلك، فقد كانت حاملا. وضعت الطفلة طفلاً وأرادت تسجيله في مكتب الصحة ولكن الموظف رفض تسجيل الطفل لأنه لا يوجد عقد زواج.. القانون قانون. لم تستفد وفاء من قانون تحريم الختان ولم تستفد من قانون تحريم زواج القاصرات، ولكن في هذه المرة طُبق القانون عليها لأنها هي المتضررة. قال الموظف إنه على والد الطفل أن يحضر لإثبات أبوته له كي تأخذ الإجراءات مجراها. ولكن الأب اشترط أن تعود وفاء إلى بيته حتى يعترف بأبوته للطفل، فتعقدت الأمور.

كل ذلك حدث وأنا في ألمانيا حيث لم يخبرني أحد بزواج وفاء ولا



بما حدث لها فيما بعد. ولكن حين لاحظ أخي أن وفاء دخلت في حالة اكتئاب شديدة اتصل بي وحكى لي ما جرى وقال إن وفاء تريد العودة إلى المدرسة ولكن أباها يرفض لأنه «خايف من كلام الناس». كدت أصاب بالجنون وتساءلت كم جريمة أخرى تريد هذه العائلة أن ترتكبها في حق وفاء، ولم يتبق لي إلا أن أهدد والد وفاء بأنه إن لم يعدها إلى المدرسة لقدمت ضده بلاغا للنيابة بسبب تزويجه قاصراً. اتصلت بعدها بمدير المدرسة وطلبت منه أن يقبل أوراقها من جديد وأن يحميها من تعليقات الطالبات السخيفة. ثم تحدثت إلى وفاء وحاولت تشجيعها وقلت إنه ليس عاراً أن يفشل زواج وليس عيباً أن تعود أم إلى المدرسة من جديد، بل إن ذلك مدعاة للفخر وسبب لأن تصير هي قدوة حسنة لكل بنت يفشل زواجها. عادت وفاء إلى المدرسة وكانت في منتهى السعادة.

وأثناء زيارتي الأخيرة للقرية جاءت وفاء لزيارتي بالمنزل وهي تحمل طفلها على ذراعها. ابتسمت كعادتها ونظرت إلى الأرض. سألتها بالإنجليزية «كيف حالك؟» فردت بوجه عبوس «أنا نسيت الإنجليزي يا خال!».. ارتبكت قليلاً ثم نظرت إلى أمها فأسعفتها أمها قائلة «إحنا كنا عاوزينها تكمل في المدرسة بس هي ما رضيتش»! الحقيقة هي أن والد وفاء أجبرها على ترك المدرسة من جديد وأعادها لزوجها كي يعترف بالطفل.

نظرت إلى أختي وابنتها فرأيت طفلتين تحملان طفلين.. أصبحت وفاء أماً وهي في الخامسة عشرة وأصبحت أمها جدة وهي في الرابعة والثلاثين. كلتاهما كانت طالبة نابغة، ولكن العائلة قدمتهما قرباناً للنظام والتقاليد. سلبهما هذا النظام طموحهما وقدرتهما على التفكير



باستقلالية. لم يتبق اليوم من عيونهما الفضولية البريئة سوى ابتسامة كاذبة حائرة. تساءلت في حسرة: من سيغير هذا النظام غير المدرس والإمام والطلاب النوابغ؟ ولكنهم تواطأوا جميعاً مع بعضهم ضد التغيير ثم دفنوا رؤوسهم في الرمال وراحوا ينتظرون المخلص. من الطريف في الأمر أن والدي ووالد وفاء من أنصار البرادعي وأصيبا بخيبة الأمل عندما تعرقل مشروع ترشيحه للرئاسة! كلاهما يظن أن التغيير يجلبه الآخرون.

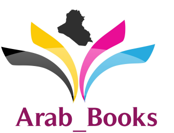
تسببت قصة وفاء في سقوطي في حالة نفسية سيئة للغاية، ورحت أتساءل: متى بدأ الشرخ في هذه العائلة؟! تذكرت يوم عرس أختي، أم وفاء، ربما يكمن اللغز في ذلك اليوم. عندما كنت طفلاً كان أبي يكلفني الإمساك بالدجاج من حوش المنزل ليذبحه. كانت مهمة صعبة جداً لأن الدجاج المنزلي خفيف الحركة وسريع الهرب. ولكن لم تكفِ دجاجات المنزل ضيوف عرس أختي، فذهبنا لشراء فراخ «الوزارة» من أحد مزارع التسمين عن طريق البطاريات. كانت الدجاجات تقف بلا حول ولا قوة في سجنها ولم تبدِ أية مقاومة حين أمسك عامل المزرعة بها وأدخلها في القفص. وطوال الطريق لم تتحرك دجاجة واحدة ولم تصدر أي صوت. حتى عند ذبحها أذعنت جميعها لقدرها المحتوم وكأنها بلا أجنحة.

هل صارت مصر كلها مزرعة وصرنا جميعاً «فراخ الوزارة» منزوعة الريش ومكسورة الأجنحة، كلٌّ يعرف مكانه فلا يتخطاه؟ هل أنسانا السكوت الطويل وعدم الحركة نزعة الحرية والهرب من الأخطار؟ يتغير العالم من حولنا وتتغير القوانين وقواعد التسمين.. ولكننا لا نتغير. نكتفي من الحين للآخر بديك عفي «يتنطط» حولنا ويوهمنا بأن التغيير وشيك، أو بدجاجة لبِقة تذكرنا بأن الدجاج في الهند وبوركينا فاسو أيضاً



يعاني أشد المعاناة، أو أن دجاجات أوروبا تُعرض عارية في الفاترينات وتنتهك حرمتها من أجل تسويق البضائع. ومع الوقت ننسى حتى أننا نعيش في أقفاص ونسعد بالخلطة التي يلقيها صاحب المزرعة تحت أقدامنا.. تلك الخلطة المصنوعة من عظام دجاجات أخرى. الخلطة السحرية تجعلنا نقبل الواقع ونرضخ للمكتوب: الختان للنساء.. الخصاء للرجال.. الديكتاتورية تبدأ في الرأس!




Arab_Books

الخوف من الجسد..

أو هل يحتاج الإسلام ثورة جنسية؟

لم يكن الدين الإسلامي أبداً معادياً للجنس. بل إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يحترم حق المرأة في الاستمتاع باللقاء الجنسي مع زوجها ويعطي نصائح للرجل كي لا يحرم زوجته من لذة الفراش. وفي القرون الوسطى اتهم الأوروبيون الإسلام بأنه دين جسدي يتحدث صراحة عن الجنس واللذة ويحرّم الرهبانية واعتزال النساء. ولكن المفهوم القبلي والبدوي للعائلة والشرف اختلط بالإسلام منذ ميلاده، فحرم المرأة من حقوقها وضيق الخناق عليها وعلى جسدها. وكما كان الأفارقة يعتقدون أن الشيطان يسكن في رحم المرأة، واخترعوا عادة الختان لطرد الشيطان، وكانوا، بل وما زالوا، يقومون بتشويه الأعضاء التناسلية للمرأة وطمسها لحين زواجها، فإن العرب في الماضي والحاضر كانوا يراقبون المرأة في كل خطواتها ولا يثقون بمشاعرها وأهوائها. والسبب في ذلك هو مفهوم الشرف كما فهمه العربي القديم، وهو مفهوم يرتبط بالرجل وحسبه ونسبه وغِيرته ومخاوفه. فكلمات: شرف، وشهامة، ومروءة، وعِزة، وكرامة، وفخر، ونخوة.. يمكن الاستعاضة عنها بكلمة واحدة هي: رجولة.



فمفهوم الشرف كان دائماً مرتبطاً بالنسب والعِرق والدم والخط العائلي للرجل. فالقصيدة العربية القديمة تعتمد على مدح قبيلة الشاعر وسرد أسماء أبطالها والتغني بأنسابها. وبما أن المرأة هي الوحيدة التي تضمن عدم اختلاط الأنساب، فقد كانت دائماً تحت مراقبة الرجل، وهكذا أصبحت كلمة شرف مرادفة لكلمة عفة المرأة. وقد تبنى الإسلام أيضاً هذا التعريف للشرف وعلاقته بالنسب والخط العائلي، حتى إن الرسول نفسه تغنى بنسبه وافتخر به حين قال فيما رواه مسلم: «إن الله اصطفى بني كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيارٌ من خيارٍ من خيار».

إذن فالشرف العربي يمكن تشبيهه بأمانة يودعها الرجل بين فخذي المرأة، أي أنه شيء لا يمكن للمرأة أن تكتسبه، بل هو شيء يمكن أن تخسره في أي لحظة. ولم ينظر العربي بصفة خاصة، والمسلم بصفة عامة، للمرأة عبر التاريخ على أنها بشر في المقام الأول ولكن كحامل لهذا الشيء القابل للكسر والاشتعال والخطف الذي يسمونه «الشرف»، أو كحامل لولي العهد الذي سيحمل اسم العائلة. وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقة بين الجنسين التي أصابتها البارانويا وعدم التوازن. وكان ذلك سبباً في اختراع أو استيراد أساليب لترويض أو تخويف المرأة مثل الرجم والجلد والختان والنقاب والبرقع. حتى إن هناك مصطلحا جديدا تم اختراعه في هذا الصدد وهو «جرائم الشرف» حين يقتل الأب ابنته أو الأخ أخته بسبب سلوكها، وهو مصطلح ظالم للمرأة ويحمل تبريرا للجريمة، وكان من الأولى أن يُسمى «جرائم العار».



كانت هناك عادة غريبة مارسها الصينيون حتى خمسينيات القرن الماضي وهي كسر أصابع قدم الفتاة وهي صغيرة ثم ثنيها تحت بطن القدم وربطها برباط خانق حتى لا تنمو قدمها وتظل صغيرة. وكان لهذه العادة البشعة أصل تافه وهو أن أحد الأباطرة قبل آلاف السنين وقع في غرام راقصة وأعجب بقدميها الصغيرتين، ومنذ ذلك اليوم والقدم الصغيرة في الصين هي أهم معايير الجمال. صارت العديد من الأمهات منذ ذلك الحين يصررن على كسر أقدام بناتهن فى الصغر، ومع مرور الوقت تحولت الموضة إلى عادة ثم إلى قانون، فكانت البنت ذات الأقدام السليمة لا تحصل على عريس. ويمكن مقارنة تلك القصة بقصة ختان الإناث في مجتمعاتنا: بدأ الأمر بأسطورة إفريقية استوردها الفراعنة ثم تحولت إلى عادة ثم إلى قانون ألصقنا به الدين ومفاهيم الشرف، حتى صارت البنت التي لا تختتن تخشى اليوم من العنوسة، مع انها هي السليمة وليست المشوهة.

إن الجنس هو أكثر الأشياء طبيعية في الحياة، بل إنه هو الحياة ذاتها. ولكن البشر يميلون دائماً إلى إضفاء جو من القدسية والرهبة على العملية الجنسية. وفي جميع الثقافات وفي جميع اللغات تقريباً يُطلق على «غشاء البكارة» مصطلح شبه ديني يعطي هذا الجزء من الجسد أكثر من حجمه. فيُنظر إليه كأنه بوابة مقدسة تتغير المرأة والعالم كله بعد فتحها، في حين أنه ليس أكثر من شيء مرن لا يتهتك بعد أول لقاء جنسي وإنما يتغير شكله فقط (كما أثبتت آخر الأبحاث الطبية). وقد أصبح غشاء البكارة هذا حديث الصحافة ومجلس الشعب في مصر لأسابيع بعد انتشار تقارير عن نزول كمية كبيرة من أغشية البكارة الصينية



للسوق المصري. وحقيقية أن السوق المصري في حاجة لمثل هذه الأغشية بجانب الضجة التي أحدثها تناولها في الأسواق يوضح أن هناك خللاً في مفهومنا للأخلاق والقيم، لأن الأخلاق التي تأتي من مبدأ قصر الذيل ليست أخلاقاً، والعفة التي تأتي نتيجة عدم إمكانية الاختيار ليست سوى رذيلة تنتظر فرصة ارتكابها.

من الغريب جداً أن المجتمع، وليس المرأة نفسها، هو الذي يقرر أي أعضاء جسد المرأة مهم ويجب الحفاظ عليه مثل غشاء البكارة وأيها «زائد» ويجب بتره عن طريق الختان مثل البظر. تخيل عزيزي القارئ لو أننا اعتبرنا غشاء البكارة هذا كأي جزء من الجسد مثل اللحمية أو الغدة الدرقية أو اللوزتين وأعطينا المرأة وحدها حرية التصرف فيه، ماذا ستكون النتيجة؟ تخيل لو أننا أطلقنا على هذا الغشاء اسماً عاديا جداً مثل «باب زويلة» أو «كوبري الهنا»! تخيل لو أننا اتفقنا أن المرأة هي التي تمتلك غشاء بكارتها وبظرها لا العكس!

لست من دعاة العري والفحش والرذيلة، ولكنني أتساءل عن مفهومنا للأخلاق والفضيلة ومدى فاعليته. هل عفتنا وطهرنا حقيقيان وناتجان عن ورع وتقوى، أم أنهما صارا مجرد أفكار وأحلام لا علاقة لها بواقعنا اليوم. هل هذه الاخلاق نتيجة فكر ديني معتدل يفهم طبيعة الجسد ويحاول التوصل إلى توازنه، أم أنها أفكار قبلية عصبية هي التي تحكم علاقة البنين بالبنات والآباء بالأبناء؟ 70% من أبناء وبنات مصر والعالم الإسلامي كله تحت عمر الثلاثين ونصفهم تقريباً من المراهقين، وقد صار الزواج في سن مبكرة للرجال شبه مستحيل بسبب الحالة الاقتصادية. أي أن الغالبية العظمى من الشباب تعيش حياة جنسية



غير صحية أثناء فورة الشباب وحتى مرحلة متقدمة من الرجولة. ولذلك أبعاد اجتماعية ونفسية خطيرة على مجتمعاتنا. وهناك علاقة وطيدة بين الكبت الجنسي والتطرف الديني وظهور أشكال غريبة من العنف. فالجنس طاقة من طاقات الجسد، والمعروف عن الطاقة أنها تحتاج قنوات سليمة تتفرغ فيها، وإن لم تتوفر هذه القنوات انتهت تلك الطاقة إلى فوضى وعنف. نظرة بسيطة إلى شوارعنا وما يحدث فيها من تحرش وانفلات وازدواجية في الأخلاق توضح أننا بحاجة لإعادة النظر في مفهومنا عن الأعراف والقيم وعلاقتنا بالجنس!

نشرت الكاتبة التركية «سيران آتيش» في عام 2009 كتاباً مثيراً للجدل بعنوان «الإسلام يحتاج ثورة جنسية» تدعي فيه أن علاقة المسلمين بالجنس هي أحد العوائق بينهم وبين الغرب، وبالتالي بينهم وبين التقدم، وقالت إن الأسرة المسلمة تهدر طاقات مهولة في مراقبة بناتها وأولادها، لذا فإن هذه المجتمعات تحتاج ثورة جنسية كما حدث في أوروبا في ستينيات القرن الماضي كي تتحرر الطاقات المكبوتة وتتحرر المرأة من عبودية الرجل، على حد قولها. وقد جمعني بتلك الكاتبة لقاء تليفزيوني في يناير الماضي بألمانيا ودار النقاش حول الجنس والإسلام. وقد اعترضتُ على مصطلح «الثورة الجنسية» كما تفهمه «آتيش»، وقلت إن هذا لا يمكن تطبيقه في البلدان الإسلامية، لأن الثورة الجنسية في أوروبا جاءت نتيجة ثورات عديدة سبقتها في أوروبا مثل الثورة الصناعية التي جعلت المرأة عاملة، والثورة الفكرية التي حررت العقل، والثورة التكنولوجية التي اخترعت حبوب منع الحمل والغسالة الكهربائية، والتي أسهمت في تحرير المرأة أكثر من أي شيء آخر. وقد استهلكت



المجتمعات الإسلامية ثمرات تلك الثورات الأوروبية، ولكنها لم تنتج مثلها بعد، وهنا يكمن لب القضية.

لابد أن يعترف المسلمون أولاً أن هناك مرضاً فكرياً ومرضاً عضوياً في قلب مجتمعاتهم، حتى يقبلوا حقيقة أن هناك دواء لهذا المرض. وهذا المرض له علاقة بنظرة المسلمين للعالم وعلاقتهم بالدين. والحرية الجنسية لن تؤدي إلى نتيجة إيجابية ما دام النظام الفكري قائماً كما هو ومحبوساً في فكر القبيلة وتقديس السلطة وعدم الخروج عن النص. لا بد أن يتعلم الآباء أنهم لن يستطيعوا فرض أسلوب حياتهم وتفكيرهم القديم على أبناء جيل «الفيس بوك». كما على الأبناء أن يفهموا أن الحرية لا تعني هدم جميع الأسوار والعبث واستهلاك الملذات. ما نحتاجه هو إعادة تفاوض حول قضايا الدين والجنس ودور المرأة في المجتمع، وعلى هذا التفاوض أن يخلو من التشنج والرجولة الكاذبة. وعلى مائدة التفاوض لا بد أن يكون الرجل والمرأة ندين متكافئين. علينا أن نفهم أن استقلال الوطن يبدأ باستقلال الجسد. وعلينا أيضاً أن ندرك أن تحرير المرأة يتطلب أيضاً تحرير الرجل من أعباء الرجولة القاسية!

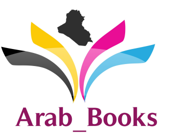
كنت أتنزه في الصيف الماضي في حديقة القرية الأوليمبية بمدينة ميونيخ. وكان العديد من الشباب يركضون وبعضهم يجلس تحت الأشجار ويشرب الخمور. وحين نزلت من هضبة الجبل الأوليمبي رأيت عائلة فهمت من لهجتها أنها سعودية. الزوج يرتدي «شورت» و«تي شيرت» وزوجته ترتدي عباءة سوداء وحجاباً وقفازا طويلا يغطيه ما يقرب من كيلوجرام من المجوهرات. وخلفهما كانت خادمتهما الآسيوية غير المحجبة تدفع أمامها طفلاً في عربة. لاحظت أن الزوج



يراقب مؤخرة كل فتاة تمر أمامه راكضة بنشوة يصعب إخفاؤها، وكانت زوجته تراقبه ثم تنظر بحنق لكتلة اللحم التي يشتهيها زوجها ولكنها لا تنطق بكلمة. وبعد قليل توجهت بعض الخطوات للخلف وصارت تصرخ سباباً في وجه خادمتها بلا سبب ملحوظ. بالطبع فإن هذه القصة ممكن أن تحدث مع أي عائلة سواء كانت مسلمة أم لا، ومع ذلك فهي توضح ديناميكية العائلة المسلمة وتفضح ازدواجية الأخلاق فيها بشكل واضح، كما تشرح علاقة المسلم المركبة بالغرب بين الافتتان وسوء الظن والحسرة.

وها هي امرأة سعودية لم تحتج أن تصبح بقرة في سويسرا لتحصل على بعض الحرية، ولكنها حتى في أوروبا لا تزال تصر على دورها التقليدي فتنتظر من الرجل أن يتكفل بجميع نفقاتها وأن يغدق عليها الهدايا والمجوهرات وأن يوفر لها خادمة، وفي سبيل ذلك تتخلى عن أبسط حقوقها. هذا هو بالضبط ما قصدته حين طالبت بتحرير الرجل من محنة الرجولة.




Arab_Books

مأساة التعليم العربي..
أو محمد في سوق الإلكترونيات

منذ الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 ودول الخليج تتسابق في تحديث أنظمتها التعليمية وتستخدم لذلك أكفأ الخبراء من أوروبا وأمريكا الشمالية. ولكن التحديث الذي توصل إليه الأشقاء العرب حتى الآن لم يتخطَ إلا تطوير تقنيات الفصل الدراسي وسبل التلقين وظل بعيداً عن تطوير الفكر وجوهر الثقافة. كان واضعو السياسات التعليمية العرب يرفضون أي تدخل في محتوى الدرس من قِبل الخبراء الأجانب ويعتبرون ذلك خرقاً لسيادتهم. وقد فهم الخبراء ذلك وصاروا لا يزعجون أسيادهم بأفكار تنويرية واكتفوا بإرضائهم ببرامج كمبيوتر ملونة ومسلية. وهكذا أصبح تطوير التعليم مجرد طلاء خارجي لم يمس لب المشكلة التي يعاني منها العقل العربي.

يمكن تشبيه تطوير التعليم في دول الخليج بتطوير سباق الإبل هناك، ففي دولة الإمارات أصبح الرجل الآلي يجلس فوق الجمل بدلاً من راعي الإبل، وصار يتحرك بريموت كنترول. ولكن إلى أين؟ البنايات الضخمة الحديثة والمشاريع الثقافية التي يشتريها الخليجيون تحاول أن تعطي انطباعاً أن هناك انفتاحاً وحداثة. تنقل أبو ظبي أعمال متحف



اللوفر لأرضها، ولكن لا تنتج أبو ظبي عملاً وحيداً يمكن مقارنته بأعمال اللوفر، لأن الروح التي نشأ فيها اللوفر ممنوعة من دخول صحراء الخليج. لم يفهم الإخوة العرب بعد أن الحداثة لا تُشترى وأن الثقافة لا تُستهلك.

أثبتت لي زيارتان لمدينة دبي في السنوات الأخيرة أن الانفتاح لا علاقة له بالضرورة بالرخاء الاقتصادي. فقد رأيت هناك نوعاً من أنواع التفرقة العنصرية ظننت أنها اختفت على الأقل من دولة الإمارات. فمن المعروف أن أكثر من 80% من سكان دبي من المهاجرين، وهم يعيشون في أحياء منفصلة تماماً عن تلك التي يسكنها «سادتهم» الإماراتيون، ويبعدون كل البعد عن الرخاء الذي شهدته المدينة في العقود الأخيرة. ولكن ليست هذه هي القضية.

كنت أسير ذات يوم في شوارع دبي وأنا أرتدي جلباباً خليجياً، وفوجئت بالمهاجرين الآسيويين يتوقفون عن السير كلما رأوني ليفسحوا لي الطريق ظناً منهم أنني من سادتهم. وفي اليوم التالي رأيت أحد السادة الحقيقيين ينزل غاضباً من سيارته الفارهة ويجذب إليه مهاجراً وصار يعنفه ويسبه وسأله عن صاحب عمله ووثيقة سفره كما لو كان رئيس الشرطة. كانت جناية الوافد الغريب أنه قطع على الشقيق العربي طريقه. وأثناء الزيارة الثانية رأيت مسؤول إدارة المرور في التلفزيون وهو يشيد بحركة المرور في المدينة، ثم ذكر في نهاية تقريره أنه تم رصد خمس مخالفات فقط خلال هذا الأسبوع وكان جميع المخالفين من المهاجرين الآسيويين وقد تم ترحيلهم إلى بلدانهم فوراً. هكذا بكل بساطة وكأنه يتحدث عن صناديق بضاعة لا عن بشر سافروا وتغربوا وخدموا هذه المدينة حتى صارت مدينة.



على الرغم من الثراء الذي جلبه البترول لدول الخليج، فلم تنجح دولة واحدة منها في خلق مجتمع ديمقراطي يكون قدوة لباقي الدول العربية. لم تخلق واحدة منها مجتمعاً مدنياً يحترم كل مواطنيه ويعاملهم بالتساوي مهما كانت أصولهم أو أعراقهم. بل على العكس تماماً، فقد أدى هذا الثراء إلى توطيد فكر القبيلة وإلى الغرور الثقافي. وعلى الرغم من أن دبي نجحت في خلق بدائل اقتصادية للبترول بإنشاء مراكز سياحية ومالية، فإن المدينة كانت تبني الكثير من المشاريع فوق الرمال، بكل ما تحمله الكلمة من معان. فما أن فرغت المدينة من بناء برج الخليفة العملاق الذي يعد أعلى بناء في العالم حتى اكتشف الجميع أن المدينة مفلسة تماماً. وهذه نتيجة منطقية للبذخ والتبذير وعدم التخطيط. ولم تكن نتيجة هذا الإفلاس أن توقف أثرياء المدينة عن شراء السيارات الفارهة والأسلحة المتطورة وقضاء العطلات في سويسرا وبيروت، بل قرر أولو الأمر إلغاء المشاريع الثقافية كافة بلا استثناء وطرد جميع الخبراء القائمين عليها فوراً. ولم يكن إفلاس دبي درساً لدول الخليج الأخرى للتقليل من البذخ، بل أعلن أحد الأمراء السعوديين بعد افتتاح برج الخليفة مباشرةً أنه يعتزم بناء برج أعلى منه.

والوضع في أرض الحجاز بلا أشك أشد سوءًا من دبي. فكل محاولة للتغيير أو الانفتاح هناك يعرقلها حراس الدين الوهابيون. لذا فيبدو أن المملكة ترغب في التخلي عن الخبراء التربويين الغربيين ونراها الآن تتجه شرقاً، وتحاول استيراد النظام المدرسي الياباني الذي يناسب العقلية العربية أكثر. النظام والانضباط واحترام السلطة هي أبرز ملامح فلسفة التعليم اليابانية. كما أن اليابان رغم تقدمها الاقتصادي لا تزال



تعامل المرأة ككائن درجة ثانية؛ مما يوافق هوى الإخوة السعوديين. وكان أكثر ما بهر خبراء المملكة التربويين حين زاروا مدارس اليابان هو كيفية تنظيم الفصل الدراسي وانضباط الطلاب العسكري وبدء الحصة الدراسية بتنظيف الطلاب الفصل، وانتهاء اليوم الدراسي بتنظيفهم دورات المياه.

مرة أخرى يلعب الشكل لا الجوهر الدور الرئيسي في تطوير التعليم سواء توجهنا شرقاً أو غرباً. وذلك لأن واضعي السياسات التعليمية ما زالوا لا يعلمون بالضبط ماذا يريدون من الطلاب وإلى أين يريدون الوصول بهم. فكل نظام عربي يريد تدريب طلابه كي يصيروا منتجين ومطيعين، ولكنه يخشى من أن يعلمهم التفكير الحر والاستقلالية في اتخاذ القرار؛ لأن في ذلك خطراً على أصحاب السلطات، لأن أي مواطن ذكي سيبدأ في التساؤل عن شرعية هؤلاء. ولكن ماذا يمكن أن ينجزه التعليم في بلد تحكم شوارعه هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسيطر على مساجده أصحاب الفكر الوهابي المتزمت الذين تمولهم الدولة سنوياً بثلاثة مليارات دولار كي يطلقوا فتاوى لا يحتاجها أحد مثل تحريم التدخين وحرمانية إرسال الزهور للمريض. هناك حالة من الفصام الثقافي والمعيشي في المملكة: ثراء وبذخ ومنتجات غربية في متناول الجميع، وأفكار متزمتة من القرون الوسطى تسيطر على المدارس والمساجد والشوارع. وهذا الفصام يؤدي إلى التشتت والكبت ثم إلى الانفجار. ليس غريباً إذن أن يكون بين 19 ممن نفذوا أحداث سبتمبر 15 من السعودية وحدها.

ومن ناحية أخرى فإن النظام السعودي من أشد حلفاء الغرب



اقتصادياً وعسكرياً. وفي حين تحارب قوات «الناتو» ضد تنظيم القاعدة في جبال أفغانستان فإن قادة الغرب يتضرعون للنظام السعودي الذي يحمي الفكر المتعصب نفسه. بل ويسمحون ببناء أكاديميات الملك فهد في بلدان أوروبا وأمريكا الشمالية التي تنشر هذا الفكر المتشدد. من منا لا يتذكر الرئيس الأمريكي السابق بوش وهو يرقِص ممسكاً بيد العاهل السعودي؟ أو أوباما الذي انحنى له إجلالاً وكأنه لا يعلم شيئاً عن انتهاك حقوق الإنسان في المملكة. وأثناء خطابه في القاهرة أثنى أوباما على جهود الملك عبد الله في مجال حوار الأديان. ولكن أي حوار هذا؟ هل هناك حوار أديان في المملكة نفسها بين الوهابيين والشيعة وأصحاب الديانات الأخرى؟ هل إرسال مبعوث إلى فندق خمس نجوم في أوروبا يتحدث بكلام معسول عن التسامح والتعايش السلمي هو حوار الأديان في حين أن أصحاب الديانات الأخرى مضطهدون في المملكة؟!

يبدو أن حوار الأديان والثقافات أصبح تجارة رابحة في هذا الزمان، فكل من يرغب في الحصول على تمويل دولي أو على «برستيج» يلصق شعار حوار الحضارات على مشروعه. ولا نسمع في تلك الحوارات سوى «الأسطوانات المشروخة» والكلام المنمق البعيد عن الواقع وعن المشكلات الحقيقية التي نعيشها. إنها مجرد حوارات ماركة «ابتسم عشان الصورة تطلع حلوة» وماركة «الضحك على الذقون». حتى في المجال الأكاديمي صارت مثل هذه الحوارات عقيمة ومملة لأنها غير متوازنة ولا تهدف إلى نتائج ملموسة.

كنت أعمل منذ عدة أعوام في أحد المعاهد التربوية بألمانيا المتخصصة فى أبحاث الكتاب المدرسي، وكانت وظيفتي الرئيسية هي



بناء شبكة من الباحثين وصانعي السياسات التعليمية في أوروبا والعالم العربي لإجراء أبحاث مشتركة حول صورة الذات وصورة الآخر في الكتب المدرسية العربية والأوروبية. وكانت للمعهد الذي عملت فيه خبرات واسعة في هذا المجال، فقد أخذ على عاتقه مهمة علاج جروح التاريخ بين ألمانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الثانية عن طريق فهم تاريخ الصراع قبل طي صفحات الماضي. وكانت أهم إنجازات المعهد هي إنتاج كتاب تاريخ مشترك يُدرس في ألمانيا وفرنسا على السواء، مما أسهم إسهاماً كبيراً في التصالح بين أعداء الماضي. كما بدأ المعهد مشاريع مشابهة مع روسيا والتشيك وبولندا ودول البلقان، وجميعها نجحت في تحقيق أهدافها.

ولكن عندما أراد المعهد أن يبدأ مشروعاً مشابهاً بين أوروبا والعالم العربي تعثرت الأمور. والسبب هو أن الجانب العربي كان غير متحمس وغير مستعد لأخذ خطوات للتقارب. وقد حضرت مؤتمرين مرتبطين بهذا المشروع أحدهما بالجامعة العربية في القاهرة والآخر نظمته هيئة اليونسكو في الرباط، وبدا من معظم المشاركين العرب أنهم غير مستعدين للتفاوض حول كتب التاريخ المدرسية لديهم، ولكن كان هدفهم الوحيد هو تحسين صورة الإسلام في كتب الغرب. ومن ناحية أخرى أصروا على أن سردياتهم التاريخية جزء من هويتهم فلا يمكن تغييرها. وقد حاولت أن أشرح لبعضهم أن القصة ليست تحسين أو تشويه صورة، ولكن محاولة لتفكيك السرديات التاريخية ومحاولة فهم الظروف التي كُتبت فيها، فالقصة التاريخية لا تخبرنا بالضرورة عن حقيقة ما حدث، ولكن تخبرنا عن كاتب القصة وظروفه ورغبته في أن يوصل



رسالة ما ورغبته في ترسيخ صورة عدو ما. ولو حاولنا قراءة التاريخ بهذا الأسلوب لربما تمكنا من نزع فتيل العديد من القصص التاريخية التي لم تكن سوى أساطير أو مبالغة في وصف ما حدث بالفعل.

وبعد ذلك بشهور كنت مسئولاً عن تنظيم أحد تلك المؤتمرات في ألمانيا وقد حضره خبراء من مصر والأردن والمغرب واليمن وألمانيا وتركيا وإيطاليا. وقد فوجئت بركاكة معظم الأوراق التي قدمها الأساتذة العرب والتي لم تكن إلا دفاعاً عن الإسلام ولوماً على الغرب وبعيدة كل البعد عن الموضوعية والقواعد الأكاديمية. وقد بدأ الخبراء الأوروبيون يتهامسون حين راح أستاذ تربوي أردني يمدح بلاده ويتغزل في حكمة جلالة الملك وتسامح الكتب المدرسية الأردنية. وبعد نهاية اليوم الأول للمؤتمر اشتكى الأستاذ الأردني أن الفندق الذي يقيم فيه أعضاء المؤتمر ثلاث نجوم فقط في حين أنه معتاد على فنادق الخمس نجوم حين يحضر مؤتمرات في بلدان عربية. سألته بسخرية أن يعطيني ورقة بنتائج تلك المؤتمرات العربية التي حضرها فتلعثم. وكان من بين الحضور أيضاً مدرس بكلية التربية بجامعة عين شمس اسمه محمد، وكان أكثر ما يخافه هو أن يكون اللحم المقدم له في المؤتمر غير مذبوح على الشريعة الإسلامية. وأثناء المبيت في الفندق أيقظني صراخ الشيخ محمد وهو يؤذن لصلاة الفجر، فقفزت من الفراش وحاولت إيقافه لكنه استمر في الأذان. كان يعلم بالطبع أن غالبية النزلاء في الفندق من غير المسلمين ولكنه لم يتوان عن إقلاقهم لأنه يعتبر ذلك حقه في العبادة.

وفي اليوم التالي توجهنا إلى مطعم أردني كي يأكل الضيوف لحماً حلالاً ولكن الشيخ محمد رفض الجلوس إلى المائدة لأن أحد أعضاء



المؤتمر من غير المسلمين كان يشرب البيرة. الشخص نفسه الذي سلب حق غير المسلمين في النوم بالأمس أراد سلب أحدهم حق شرب الخمور في اليوم التالي، وكان يظن أن ذلك من صميم الإيمان. إن دور هذا الشخص هو تعليم المعلمين، وهو دور خطير ومهم، ولكنه كان يتعامل مع الجميع بتشنج وكان يتعامل مع الدين فقط كمجموعة من المحرمات التي تقف عائقاً بينه وبين الآخرين. وبعد انتهاء المؤتمر توجهت إلى سوق الإلكترونيات لشراء بعض الأغراض ففوجئت بالشيخ محمد هناك، فجاء إليّ مسرعاً وطلب مني أن أساعده في شراء أحدث جهاز «آي بود» لكي يسجل عليه القرآن ويسمعه متى يريد. اخترت له أحدث الأجهزة وأمسكت به في يدي قائلاً: «تعرف يا دكتور محمد.. الجهاز دا الناس اخترعوه في أوروبا إزاي؟» لم يرد، فأكملت: «لأن كل واحد من حقه يشرب اللي هو عايزه. الجهاز دا عمره خمسميت سنة من الحرية!».. لم يفهم الأستاذ الجامعي كلمة واحدة مما قلت وهز رأسه متعجباً.

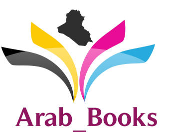
والد وفاء والأستاذ التربوي المتدين وأمثالهما من ملايين المصريين يشتكون من الأوضاع السياسية والاقتصادية ويتعجبون لماذا لا تتغير الأحوال. كلهم يشتكون من سوء النظام ولكن لا أحد منهم يتخيّل أنه هو النظام. كلهم يعتقدون أن الديمقراطية مجرد صناديق اقتراع ونظام يُفرض من أعلى وحاكم صالح يحل جميع المشكلات بعصاه السحرية. لم يدرك هؤلاء أن الديمقراطية تجربة تبدأ في المنزل حين يتفاهم الأب مع أبنائه والجار مع جيرانه عن طريق التفاوض لا عن طريق الصراخ وفرض وجهات النظر. فإذا لم يكن البيت والمدرسة



والجامعة والجامع ديمقراطيين فلا جدوى من الأحزاب والانتخابات. كيف يمكن للديمقراطية أن تصير واقعاً في حين أن الأب في المنزل والمدرس في المدرسة ورجل الشرطة في الشارع يتصرفون كالآلهة؟! فاللغة التي يتحدث بها هؤلاء واللغة التي يفهمون بها العالم هي لغة السلطة والأوامر. كل هؤلاء سجناء في حلقة مغلقة يغذيها العنف والقهر: الزعيم يقهر زبانيته والزبانية يقهرون الشعب. صاحب العمل يقهر الأجير والمدرس يقهر تلاميذه، والزوج يقهر زوجته، والزوجة تقهر أبناءها والأبناء يقهرون الحيوانات.

الجميع يصرخون «التعليم هو الحل»، ولكن أي تعليم؟ فمجرد تعليم القراءة والكتابة للطلاب لن يأتي بمعجزة، بل على العكس؛ فإن أنصاف المتعلمين هم أكثر خطراً على المجتمع من الأميين، لأنه من السهل السيطرة على عقولهم بكتب صفراء متطرفة تجعلهم يظنون أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة. وما دام التعليم محبوساً في الخطاب الديني ومرهوناً بسياسات الحاكم وأهوائه فلن يخرج بنا من أزمتنا، بل سيساعد على تفاقمها. فلعلنا ما زلنا نذكر قصة مدرس الإسكندرية الذي كاد يفصل من عمله بسبب سؤال طرحه على طلابه «أذكر عكس كلمة مبارك!».. هذه القصة دليل على أن التعليم في بلادنا سجين لأنه لا يعرف كلمة «عكس» ولا كلمة «بدائل»!




Arab_Books

بين القبيلة والدين..
أو ما معنى كلمة «وطن»؟

تختلف كلمة «شعب» من حيث الأصل اللغوي ومن حيث المضمون عن مرادفتها الإنجليزية people والفرنسية peuple . فـ«الشعب» في معجم «مختار الصحاح» هو: «ما تشعب من قبائل العرب والعجم، القبيلة الكبيرة، فِرقة». وكلمة «وطن» تعني: «مرقد الغنم». والشيء نفسه ينطبق على كلمة «مجتمع» وهي كلمة حديثة على اللغة العربية تُرجمت عن الفرنسية societé بعد دخول الحملة الفرنسية مصر. ومع ذلك تختلف الكلمة العربية عن نظيرتها الفرنسية التي تعني تلاقي أبناء الشعب، في حين تعني كلمة «مجتمع» فقط «مكان الاجتماع». وأصل «مجتمع» هو «جمع» وهو نفس أصل كلمتي جامع وجامعة وكلتاهما تعني أيضاً مكان الاجتماع. نلاحظ أن التركيز في الكلمات العربية دائماً ليس على البشر ودورهم ولكن على المكان. لو قارننا كلمة مجتمع العربية بنظيرتها اليابانية لوجدنا أن كلمة «شاكاي» تصف ديناميكية المجتمع الياباني، فهي تعني «كلمة الشعب على أرض صلبة».

ما أريد قوله هو أن مصطلحات المجتمع المدني مثل «وطن» و«أمة» و«شعب» وغيرها ما زالت محبوسة إما في لغة القبيلة أو في الخطاب



الديني، وهذا عائق لتطوير ديناميكية المجتمع. ولذلك فإن مشروع الدولة ينتهي بنا دائماً إما لبحر رمال القبيلة المتحركة أو لأسوار الدولة الدينية المنيعة. وهذا يرجع إلى طبيعة الدين الإسلامي الذي لم يعرف يوماً فصل الدين عن الدولة. فعلى عكس المسيحية التي عاشت ثلاثة قرون كدين لأقلية صغيرة قبل أن تصير الديانة الرسمية للدولة الرومانية، تولى الإسلام مقاليد الحكم بعد سنوات قليلة من بعثة الرسول. وقد ظهر المسيح على مسرح الأحداث فقط لفترة لم تتجاوز 30 شهراً لم يشغل فيها منصباً دينياً أو سياسياً، بينما استمرت رسالة محمد 23 عاماً شغل خلالها منصب النبي والمشرع والقائد العسكري. كان النبي مسؤولاً عن جماعة كبيرة من البشر، وكان يجيب عن تساؤلاتهم في شتى مجالات الحياة. وبينما قال المسيح: «أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله» لم يستطع النبي محمد أن يقول شيئاً مماثلاً لأنه نفسه قد أصبح زعيماً للدولة أي بمقام «القيصر». لهذه الأسباب فإن فصل الدين عن السياسة في الإسلام لا يزال شبه مستحيل حتى اليوم. وهذا يعطي الحجج للدعاة الإسلاميين، من أمثال وجدي غنيم، الذين يقولون إن الديمقراطية نجسة مثل لحم الخنزير، في حين أن الشورى طاهرة مثل لحم الغنم.

وهكذا دخل أصحاب الفكر الأصولي من أمثال وجدي غنيم والحكام المتسلطين في تحالف غير مكتوب ضد قوى الإصلاح، فإذا لم يتم إسكات المصلح بحجة أنه خائن للوطن وعميل للغرب، يهجم عليه غيلان الأصولية بتهمة السب في الذات الإلهية أو إنكار ما عُلم من الدين بالضرورة. سعد الدين إبراهيم وأيمن نور ونوال السعداوي ونصر أبو زيد ومحمد البرادعي هم بعض الأمثلة على معاناة المصلحين بين



كماشة رجال السلطة ورجال الدين. حتى الدكتور أحمد زويل الذي لا يطمع في أي منصب سياسي ولا يرغب إلا في إصلاح التعليم وإنشاء مركز متقدم للبحث العلمي لم يسلم من هذا التحالف، ولا يزال يواجه العراقيل من كل الاتجاهات. فليست فقط القوى السياسية الرسمية هي التي تعوق تقدم البحث العلمي؛ بل أيضاً التزمّت الديني الذي جعل كثيراً من الناس لا يثقون في العلم، بل يشمتون فيه إذا أخفق، على حد تعبير الدكتور خالد منتصر حين تسقط مركبة فضائية أو يموت عالم جينات وراثية بالسرطان.

ترجم المسلمون في القرون الوسطى أعمال فلاسفة اليونان القدماء وتعلموا فنون صناعة الورق من الصين واستوردوا نظام الأعداد العشرية من الهند. أما اليوم فإن دولة صغيرة مثل اليونان يسكنها ثمانية ملايين نسمة فقد صارت تترجم أكثر مما تترجمه جميع الدول العربية مجتمعة. حاول ابن رشد في القرن الثاني عشر فصل الدين عن العلم حين تحدث عن الحقيقة المزدوجة قائلاً إن العلم يستخدم أدوات العقل والمراقبة، والدين يعتمد على الإيمان الغيبي، فلا يجب أن يحاول أحدهما إثبات الآخر أو نفيه. قال إن للدين حقيقته وللعلم حقيقته فلا يجوز الخلط بين الحقيقتين. أما اليوم فقد أصبح رجال الدين يفتون في أمور العلم والطب والهندسة، وصار الشعب يثق في آراء شيوخ الفضائيات أكثر من ثقتهم في الخبراء.

أصبحت قصقصة ريش الفكر والعلم هي أهم أدوات النظام كي ينعم بالاستمرارية. التعليم العربي في جيوب السلاطين. والتغيير نائم في أروقة المساجد والمدارس والبيوت والمخابز. كل المؤشرات



تشير إلى تدهور وتدنٍّ شديد في مجتمعاتنا، وليس هناك الكثير مما يدعو إلى الأمل. إلا أن باحثين من فرنسا لهما رأي آخر في مستقبل العالم الإسلامي.

في كتابهما «لقاء الحضارات» يصل كل من يوسف كورباج وإيمانويل تود إلى نتيجة أن معدلات الولادة تتراجع بوضوح في جميع الدول الإسلامية؛ في حين تزداد نسبة التعليم بين البنات والبنين. ففي حين كانت كل أم مسلمة تلد في المعدل 6.8 طفل في عام 1975، تراجع ذلك ليصبح فقط 3.7 طفل لكل أم في 2005. وفي بلدان مثل إيران وتونس تراجعت الولادة حتى وصلت إلى معدل نحو طفلين للأم الواحدة، وهو نفس المعدل الموجود في فرنسا. ويقول الباحثان إن ذلك صاحبته طفرة في تعليم البنات مما أدى إلى إحداث خلل في توازن المجتمع وفهمه التقاليد في معظم البلدان الإسلامية.

ويرى الباحثان أن تراجع المواليد وتطور التعليم هما السبب وراء الاضطرابات التي يشهدها العالم الإسلامي من حراك اجتماعي جديد وإرهاب وتطرف. ويصف الكاتبان الأزمة الإسلامية المعاصرة كأزمة مؤقتة سيخرج منها المسلمون أكثر تقدماً ومدنية. وقد قارنا وضع العالم الإسلامي اليوم بأوروبا في نهايات القرن التاسع عشر حين أدت سياسة «التعليم للجميع» في بادئ الأمر إلى اضطرابات نفسية واجتماعية أدت بدورها عند البعض إلى موجات من العنف والانتحار. كما ذكرا أن الثورات الإنجليزية والروسية جاءت بعد طفرة تعليمية في تلك المجتمعات. وأيضاً جاء الإصلاح التعليمي في إندونيسيا بموجات عنف وحروب أهلية أولاً قبل أن يأتي بثماره الإيجابية فيما بعد.

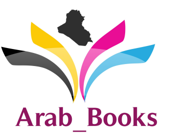


تذهب الدراسة الفرنسية إلى أن شباب المسلمين اليوم في طريقهم إلى الاستقلال عن آبائهم، لأنهم أكثر معرفة ودراية بالعالم منهم، فصاروا لا يقبلون سلطتهم ويريدون البحث عن طرق وإجابات جديدة.

ولكن ما أغفله الباحثان هو عدم جودة وكفاءة التعليم الذي يتلقاه معظم الطلاب في البلاد الإسلامية، وأن هذا التعليم لا يتخطى كونه أداة يستخدمها الحكام لشغل الطلاب عن الاضطرابات والسيطرة على فكرهم. كما أن قنوات التعليم غير الرسمي في المساجد والفضائيات أكثر تأثيراً على الطلاب ومحيطهم الأسري.. وأن نَصِفَ المتعلم فريسة سهلة للمتطرفين وأصحاب الفكر الأحادي.

ولكن الكاتبين على حق في وصفهما انسلاخ الشباب من التقاليد الأسرية القديمة وبحثهم عن أطر وأساليب جديدة لحياتهم. ومع ذلك فتبقى تلك الحلول الفردية محدودة وغير مؤثرة في تركيبة المجتمع ككل. كما أن انسلاخ الشباب من النظم القديمة قد يؤدي إلى الفوضى إذا لم يجدوا بدائل راسخة في مجتمع مدني ديمقراطي. فالهروب في حد ذاته ليس فضيلة، وخصوصاً إذا كان هروباً من الرمضاء إلى النار. ففي كثير من الأحيان يفر الأبناء من فكر الآباء القديم وينتهي بهم المطاف في أحضان الجماعات المتطرفة. أنا أتفهم تفاؤل الكاتبين الفرنسيين وأحييهما عليه. وهناك نقطة هامة تحسب لصالح إيمانويل تود بالذات؛ وهي أنه كان الكاتب الوحيد الذي تنبأ بسقوط الاتحاد السوفييتي في وقت لم يكن أحد يتوقع ذلك على الإطلاق. ومع ذلك فإن الحقائق على أرض الواقع الإسلامي تنذر بمستقبل آخر!




Arab_Books

بين التطرف والانفتاح..
أو المسلمون في بلاد المهجر

«وُلد الإسلام غريباً وسيعود غريباً»، مقولة منسوبة للرسول يفسرها المهاجرون المسلمون في الغرب على هواهم. يرى من يسمون أنفسهم بتيار الإسلام المستنير فيها أملاً في أن إصلاح الفكر الإسلامي ومصالحته مع فكرة الدولة المدنية ستكون مهمة الجاليات المسلمة في الغرب. البعض يرى أن احتكاك المسلمين بالمجتمعات الغربية قد يؤدي إلى غربلة التراث والتعجيل بعملية التنوير. ومن بين أنصار تلك الرؤية الدكتور طارق رمضان (سويسري الجنسية وحفيد الشيخ حسن البنا). وعلى الرغم من أنه من المسلمين المحافظين فله آراء مستنيرة منها أن الإسلام يحتاج لإصلاحات جذرية، وأنه على المسلمين عدم التمسك بحَرفية النصوص بل عليهم العودة إلى مقاصد الشريعة وهي العدل والسلام. ويطالب رمضان الشباب المسلم في أوروبا ألا يجعل الدين منافساً أو نافياً لهويتهم الأوروبية، ويحثهم على عدم معاداة المجتمع الذي يعيشون فيه، فمن وجهة نظر رمضان فإن المسلم الجيد هو أيضاً مواطن أوروبي جيد. كل تلك الأفكار طرحها رمضان في كتاب هام بعنوان «أن تكون مسلماً أوروبياً».



وفي الولايات المتحدة حركة دينية يتزعمها التركي فتح الله جولان تحاول خلط التعليم الديني بالمدني وصار لها ملايين من الأنصار في أكثر من مائة دولة. وشعار جماعة جولان هو التصالح مع الحداثة ودعم السلام العالمي، وهي تميل إلى الفكر الصوفي الأناضولي وترى في جلال الدين الرومي أحد آبائها الروحيين. وتقوم تلك الحركة ببناء المدارس واختراق الجامعات، مما جعل بعض الدول تنظر إليها كجماعة متطرفة تستغل التعليم كمدخل لأذهان الطلاب.

وبعد أحداث سبتمبر 2001 حاولت الدول الغربية البحث عن منظمات إسلامية في الغرب للحوار معها، فأدى ذلك إلى إنشاء العديد من المنظمات الدينية في الغرب بشكل عشوائي، وتحاول كل واحدة منها اليوم إثبات أنها الممثل الشرعي للمسلمين. ففي ألمانيا وحدها ما يزيد على 30 منظمة إسلامية قلما تتفق على رأي، فهناك المجلس الإسلامي والمجلس المركزي للمسلمين والمجلس المركزي لمسلمي المغرب والمنظمة التركية والمنظمة البوسنية والإيرانية... إلخ. ومعظم تلك المنظمات تخلط الانتماء الديني بالانتماء الوطني وتعتبر محافظة، بل ويميل بعضها إلى التطرف، وتراقب أجهزة الأمن بعضها على أنها منظمات مناهضة للدستور مثل جماعة «ميلي جوروش» التركية.

وفي ألمانيا أسس وزير الداخلية مؤتمراً للإسلام دعا إليه جميع المنظمات الإسلامية، كما دعا عشرة خبراء مسلمين مستقلين، كنت واحداً منهم. ومهمة هذا المؤتمر هي إيجاد سبل لتحسين أوضاع المسلمين وتدريس الدين الإسلامي في المدارس وتأهيل الأئمة في الجامعات الألمانية. ولكن بعد أربعة أعوام من تأسيس المؤتمر لا تزال



المنظمات الإسلامية لا تجتمع على رأي ولا تبدي أي نوع من المرونة في التفاوض، بل انسحب بعضها من المؤتمر تضامناً مع منظمة طردها وزير الداخلية من المؤتمر لتورطها في أنشطة مالية إجرامية وعلاقتها بمنظمات متطرفة. حتى في أوروبا يسيطر مفهوم القبيلة ومبدأ «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» على فكر بعض المسلمين.

ومن بين تلك المنظمات من يفسر مقولة «وُلد الإسلام غريباً وسيعود غريباً» على أن الإسلام سوف يكتسح أوروبا ويؤسلمها ثم يصدّر الثورة إلى جميع الدول الإسلامية فيما بعد. وفي أحد مساجد باريس سمعت خطيب الجمعة يفسر مقولة الرسول قائلاً:

«الحكام في بلادنا كفار ولا يطبّقون شرع الله. والحكام هنا (في أوروبا) أيضاً كفار ولا يطبقون شرع الله. ولكنهم هنا يسمحون لنا أن نعبد الله بحرية ولا يلقون بنا في السجون أن نقول ربنا الله. لذا يا إخواني فعلينا ألا ندخل في صراعات ومشاكل مع الدولة هنا. لا بد أن نستغل هذا القدر من حرية الحركة والعقيدة في إعادة تنظيم وتعبئة المسلمين. الإسلام قادم لا محالة يا إخواني، تذكروا قول المولى عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. ولا تنسوا أن هجرة سيد الخلق أجمعين إلى المدينة المنورة هي التي قوّت شوكة المسلمين بعد أن كان الإسلام غريباً. ولكن الله صدق وعده ونصر جنده وعاد المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى مكة فاتحاً ومتوجاً بنصر الله. ونحن هنا في هذا البلد أيضاً غرباء وضعفاء ولكننا عائدون عائدون عائدون....».

وعندما كان رجب طيب أردوجان عمدة لإسطنبول ألقى خطبة



مشابهة تسببت في حبسه قال فيها: «الديمقراطية ليست إلا قطاراً نركبه فقط حتى نصل إلى هدفنا. المساجد هي ثكناتنا العسكرية والمآذن هي رماحنا والقباب هي خوذاتنا».

وهنا بالضبط أرى مشكلة المهاجرين المسلمين في أوروبا وأمريكا الشمالية. فبدلاً من أن يستغلوا الحرية التي يعيشون بها في تحرير الفكر الإسلامي من أمراض السلطة وتنقيته من تأثير القبيلة، ثم يصدرونه لبلادهم، تجدهم يستوردون الفكر القديم المتجمد ويحاولون فرضه حتى على الأوروبيين. ويمكن مقارنة أوضاع مسلمي المهجر اليوم بأوضاع يهود أوروبا في القرون الوسطى.. الكثيرون منهم يعيشون في «جيتو» مغلق ومنعزل وفق تقاليد متزمتة عفا عليها الزمن بحجة الحفاظ على الهوية. وهنا يبرز دور الشريعة كوطن بلا أرض، وكدرع واقية من تأثير الآخرين.

لم يكتف أنصار الإسلام السياسي في الغرب بفرض معايير أخلاقية صارمة تتصادم مع الأعراف الغربية بل صاروا يطالبون السلطات الغربية بتطبيق جزئي للشريعة الإسلامية لفض النزاعات العائلية والمدنية بين مسلمي المهجر دون تدخل من القوانين الغربية. يعتقد بعضهم أن تطبيق «شريعة دايت» (دون رجم الزانية أو قطع يد السارق) سيكون بمثابة «حصان طروادة» يدخل به المسلمون عقر دار القانون الأوروبي فيؤسلموه رويداً رويدا.

وبعض صناع القرار ورجال الدين المسيحي في الغرب على درجة من السذاجة تجعلهم يظنون أن هناك بالفعل شيئاً يسمى الشريعة



الجزئية. هم لا يعلمون أنه لا توجد شريعة «منزوعة الدسم» فتطبيق الشريعة يمكن تشبيهه بالحمل: لا يمكن أن يكون «نُص نُص». وهي ليست مثل «بوفيه» مفتوح يمكنك الاختيار فيه بين وجبة نباتية وأخرى باللحم. فالشريعة كما يفهمها أصحاب الفكر المتشدد هي نظام متكامل يخترق كل مجالات الحياة ويرتبط بفكر سلطوي راسخ يقسم العالم لمؤمن وملحد ودار حرب ودار سلم.

ولكن بعض صناع القرار في الغرب صاروا ينخدعون بـ«بروباجاندا» الإسلام السياسي التي تدعي أن الشريعة لا تتنافى مع القانون المدني. لم يتساءل هؤلاء: إذا كان الأمر كذلك فلماذا يصر «الإسلاميون» على تطبيق الشريعة ولا يكتفون بالقانون المدني. منذ عام 2004 ومسألة تطبيق الشريعة في كندا تثير آمال ومخاوف وغضب الكثيرين. بدأت الحملة بتقرير قُدم لمقاطعة أونتاريو ينصح بتطبيق الشريعة، وقد أيد هذا التقرير الحزب الديمقراطي الجديد (NPD) الذي كان يطمع في كسب أصوات المسلمين في المقاطعة والبالغ عددهم 400000 نسمة.

وكانت حكومة المقاطعة تدرس بجدية إمكانية تطبيق الشريعة وفقا لقانون قديم يسمح للأقليات اليهودية منذ 1991 باستخدام القانون اليهودي لفض نزاعات الجالية اليهودية فيما بينها. ولكن حملات ومظاهرات كثيرة نظمها علمانيون داخل وخارج كندا أدت إلى تراجع الحكومة عن تبني مشروع الشريعة، وقد أسهم في هذه المظاهرات أيضا العديد من المسلمين الذين قالوا إنهم فروا من أحكام الشريعة في إيران وأفغانستان ونيجيريا والصومال والسودان ولا يريدون أن تطبق عليهم في مجتمع علماني، فقط لأنه مكتوب في وثائق سفرهم أنهم من أصول إسلامية.



وفي 2006 صدر كتاب لوزير العدل الهولندي يتنبأ فيه بأن تطبيق الشريعة في هولندا قد يكون مجرد مسألة وقت. وفي بداية العام الماضي فجر روان وليامز، أسقف كانتربري، مفاجأة كبرى حين أعرب عن ترحيبه بتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا جزئيا في بريطانيا لمساعدة المسلمين على الاندماج في المجتمع. وهذا الترحيب ليس في حقيقته إلا نوعاً من اللامبالاة بل والعنصرية المقنعة. فبعد أن عجزت النظم الغربية عن إيجاد طرق لاندماج المسلمين في بلدانهم يريدون أن يتركوهم في عزلتهم ليتولوا هم شؤون أنفسهم. وأمثال وليامز من رجال الدين لا ينصحون بتطبيق الشريعة من منطلق محبتهم للمسلمين وإنما ليمهدوا لحصول الكنيسة أيضا على صلاحيات أكبر في صناعة القرار وفي التشريع البريطاني. وقد نجحت تلك الجهود بالفعل، فنجد اليوم 85 محكمة من محاكم الشريعة تعمل في بريطانيا في نظام عدل موازٍ خاص بالمسلمين فقط. وعلى الجانب الآخر يزداد نفوذ اليمين المتطرف والمسيحيين الأصوليين في المجتمع البريطاني وفي كل أوروبا.

هناك بوادر أمل بين صفوف بعض المسلمين الذين يظنون أن تطبيق الشريعة سيعلي من شأنهم ويحل مشكلاتهم التي لا حصر لها في الغربة. ولو قرأ هؤلاء تاريخ يهود أوروبا لكانوا أكثر حذراً عندما يطالبون بالاستقلال القانوني. فعندما ضاقت أوروبا ذرعا باليهود في القرون الوسطى منحوهم استقلالهم «الشرعي» ولم يتدخلوا في شؤونهم، ولكن ذلك لم يحل مشكلات اليهود ولم يقلل من أمراض المعاداة للسامية التي انتهت بمحرقة القرن العشرين.

المسلمون في الغرب يعانون من مشكلات جمة لا علاقة لها بالقانون



الذي يطبق عليهم. بل إن القانون الغربي (الذي يرى الكثير من المسلمين أنه وضعي كافر) هو أكبر الضمانات لحماية حقوقهم كأقلية وحرية عقيدتهم، فهو قانون لا يفرق بين دين وآخر ولا يرفع من شأن جماعة دون أخرى. في حين أن مطالبة المسلمين بتطبيق الشريعة تقوي سطوة بعض المتطرفين المسيحيين وتعطيهم حجة قوية لإعادة الدين لساحة السياسة في الغرب، مما قد يكون له عواقب وخيمة على المسلمين هناك. فلست أدري لماذا يدير المسلمون ظهورهم للقانون المدني ويطالبون بتطبيق شريعة لا يدري أحد منهم أين تبدأ وأين تنتهي؟!

يبدو أن هناك علاقة وثيقة بين الشريعة والتغرب، فأول منابع الشريعة الإسلامية لم يولد في مكة مهد الإسلام، وإنما بعد هجرة الرسول وأتباعه إلى المدينة، حيث كانت جاليات يهودية تعيش وفق القانون اليهودي «هالاخا» الذي يعني أيضا «شريعة» أو «طريق». كلتا الشريعتين، الإسلامية واليهودية، تمثلان حالة من الحراك أو الانتقال من مكان إلى مكان، وكلتاهما تهدف إلى حماية جماعة ضعيفة على سفر.

بداية التشريعات الإسلامية في المدينة جاءت مع فرض الصلاة في اتجاه القدس وصيام يوم عاشوراء، وهو يتوافق مع أحد أعياد اليهود، ثم تحريم أكل لحم الخنزير. ولكن لاحقا وبعد أن حدث الشقاق بين الرسول واليهود جاءت تشريعات جديدة تبتعد في أغراضها عن اليهود وأعمالهم، فقد تم تحريم الخمر والزنا والربا؛ وذلك أيضا لحماية المهاجرين من سطوة المال والجنس والمسكرات. الشريعة في بدايتها لم تكن سوى محاولة للحد من تأثير «الآخر» على هوية المهاجرين الهشة الوليدة.



والتشريع اليهودي أيضا لم يولد في مصر حيث كان العبرانيون يعيشون لقرون، ولم يولد في القدس حيث أقاموا معبدهم، وإنما تلقى موسى وصاياه العشر على جبل الطور في سيناء في طريق هجرته إلى الأرض المقدسة. ومنذ ميلادها والـ«هالاخا» يشكل حياة اليهود منذ اختطافهم إلى بابل وحتى هجرة يهود أوروبا إلى فلسطين. وكان هذا القانون يلعب دور الوطن في حياة اليهود المشتتين أثناء منفاهم في بابل وفي أوروبا. صارت مراعاة القانون الإلهي وتذكر الماضي وأسطورة الرجوع إلى الوطن الأم أهم معالم الهوية اليهودية عبر ثلاثة آلاف سنة من الشتات.

وما دمنا بصدد مقارنة المهاجرين المسلمين بيهود أوروبا في الماضي؛ فعلينا أن نتذكر حركة الإصلاح اليهودية الأوروبية «هاسكالا» التي أخرجت اليهود من «الجيتو» وساعدتهم على أن يصبحوا مواطنين أوروبيين. ولم تبدأ هذه الحركة بفكر علماني معاد للدين، بل من وسط الفكر الديني اليهودي، حيث قاد تلك الحركة عالم لاهوت وفيلسوف يهودي اسمه موسى مندلسون عاش في برلين في القرن الثامن عشر وبدأ ببناء المدارس لأبناء الطائفة اليهودية وقال إن من يتعلم التوراة عليه أيضاً أن يتعلم الفلسفة والعلوم البشرية. حث مندلسون وغيره من علماء وزعماء اليهود بني جنسهم على تغيير مهنهم التقليدية كحرفيين ومتاجرين في الأموال وتدريب أنفسهم للعمل كمدرسين وأطباء ومحامين بدلاً من ذلك. كما ألحوا عليهم بتغيير مظهرهم العام وصورتهم في المجتمع كي لا يحس الأوروبيون أن اليهود يتعالون عليهم. وقد حل مندلسون أزمة الهوية لدى اليهود الألمان حين حثهم قائلا: «كونوا يهوداً في



بيوتكم وألمانا في الشوارع». وقد أدى ذلك إلى ثورة تعليمية وثقافية بين اليهود أدت إلى نبوغ أسماء كثيرة منهم فيما بعد في شتى مجالات العلم والفلسفة والفن مثل مارك شاجال وألبرت أينشتاين وسيجموند فرويد وروزا لوكسمبورج. وهذا يشرح لماذا حصل 163 عالماً يهودياً على جائزة نوبل في كل المجالات؛ على الرغم أن عدد يهود العالم لا يتجاوز 13 مليون شخص، في حين حصل تسعة من المسلمين فقط على نفس الجائزة وعددهم يقترب من مليار ونصف المليار. واليوم؛ ورغم الاضطهاد الدامي الذي تعرض له اليهود في أوروبا ما زالت جاليتهم تعيش هناك وتحترم القوانين ويحتل أبناؤها مناصب هامة في الاقتصاد والإعلام رغم قلة عددهم.

يعيش في أوروبا نحو 15 مليون مهاجر، معظمهم من الأتراك والبلاد العربية وباكستان، وهم في كل البلدان أفقر السكان وأقلهم تعليماً، كما أن معدلات البطالة والجريمة بين المسلمين تزداد بشكل ملحوظ؛ مما يزيد من كراهية السكان الأصليين لهم يوماً بعد يوم. لا يبني المسلمون المدارس الخاصة لأبنائهم كما فعل اليهود ولكنهم يبذلون قصارى جهدهم لبناء المساجد الفاخرة المزركشة التي تتكلف الملايين من تبرعات وهابية خليجية. وظاهرة بناء المساجد الفخمة هي ظاهرة جديدة في أوروبا لم تكن موجودة حين كان جميع المسلمين فيها يتمتعون بعمل مناسب وحياة جيدة. ولكن بعدما تطور الاقتصاد الأوروبي وصار لا يعتمد على الصناعات الثقيلة بل على العلوم وتكنولوجيا الإلكترونيات فقد الكثير من المسلمين عملهم لأنهم غير متعلمين، وزادت نسبة البطالة بشكل كبير بينهم. ومنذ ذلك الحين وهم يحاولون تعويض فشلهم ببناء



المساجد. أم أن القصة هي مجرد شغل لوقت فراغ الكثيرين مما لا شغل لهم؟ والتمويل الخليجي لتلك المساجد يعني في أغلب الأحيان أن خطبة الجمعة ومكتبة المسجد تتعهد بنشر الفكر الوهابي فيها.

وهناك عوامل عديدة تجعل من وجود المسلمين في أوروبا مشكلة حقيقية لهم وللمجتمعات التي يعيشون فيها؛ فعلى الرغم من أن الكثير من المسلمين يعيشون على المعونات الاجتماعية التى تقدمها لهم الحكومات الأوروبية، فما زال الكثير منهم ينظرون إلى الأوروبيين ككفار يجب أسلمتهم، فلا هم يحترمون قوانين وعادات البلد المضيف، ولا هم يعودون لبلادهم ويبدأون هناك من جديد. وبسبب الدستور الأوروبي، لا تستطيع تلك الدول طرد المهاجرين المسلمين، حتى العاطلين منهم، لذلك فهم يكتفون بقوانين رمزية مثل حظر النقاب أو المآذن كي يخففوا من غضب مواطنيهم الذين يشعرون أن المسلمين يريدون أن يسرقوا أوطانهم منهم.

بالطبع لا يعاني المهاجرون المسلمون وحدهم هم من مشكلات في الهوية والتأقلم في أوروبا، فهناك مهاجرون كثيرون من أصول آسيوية يعيشون في عزلة أيضا، ولكن مثل هؤلاء المهاجرين لا يكدرون الأمن العام ولا يصرون على إظهار رموزهم الدينية وبناء دور العبادة في وسط المدن كما يفعل المسلمون. كما أن نسبة المتعلمين بين هؤلاء المهاجرين أكبر بكثير من المسلمين ومعدل الجريمة بينهم أقل بكثير. والصحف الأوروبية تمتلئ بمثل هذه الأخبار يومياً: أب مسلم يقتل إبنته من أجل الشرف. سائق أتوبيس مسلم في بريطانيا توقف عن قيادة الاتوبيس فجأة وركنه على جانب الطريق وبدأ في الصلاة أمام المسافرين دون أن



يشرح لهم أو يعتذر عن تأخرهم. عمال مصنع مسلمون في فرنسا طالبوا بالحصول على وجبات خاصة بها لحم مذبوح على الطريقة الإسلامية، وبعد أن استجاب المصنع لمطلبهم، طالبوا بركن خاص في مطعم المصنع بعيداً عن العمال الفرنسيين الذين يأكلون لحم الخنزير. مُدرسة حضانة مسلمة في الدنمارك قدمت شكوى ضد إدارة الحضانة التي فصلتها عن العمل بعد ارتداء النقاب وأصرت على تلقين الأطفال دون أن يروا وجهها، وكان تبريرها لذلك أن هؤلاء الأطفال سوف يصيرون رجالاً يوماً ما ويجب ألا يتذكروا وجهها لأنه عورة.

هناك فهم خاطئ بين المهاجرين المسلمين لمعنى «الهوية» على أنها سور شائك لحماية أنفسهم من تأثير الغرب، وهذه نظرة تؤدي، مع مرور الوقت، إلى العزلة، والعزلة بدورها تقود إلى التطرف والعنف. وهناك ثلاثة أشكال من أشكال التطرف منتشرة بين المهاجرين المسلمين:

التطرف القبَلي: فمعظم المهاجرين المسلمين في أوروبا جاءوا من مناطق ريفية وجبلية في تركيا والمغرب وباكستان، فتراهم يصرون على أفكار وأساليب حياة رجعية ربما لا يقبلها أحد في إسطنبول والرباط وإسلام آباد. ويحاول الآباء في تلك الأسر تضييق الخناق على أبنائهم وبناتهم حتى لا يختلطوا بالمجتمعات الأوروبية ويتأثروا بهم. وفي هذه الأوساط انتشر ما يسمى بـ«جرائم الشرف»، حيث يقتل الآباء بناتهم اللاتي تركن العائلة ليعشن في استقلال. وفي ألمانيا وحدها سجلت أجهزة الأمن وقوع 96 حالة قتل من أجل الشرف بين المسلمين في السنوات الأخيرة.

أما الشكل الثاني من أشكال التطرف فهو العنف الشبابي، حيث صار



الشباب التركي والعربي يكوّنون عصابات إجرامية لتجارة المخدرات وتحصيل الإتاوات وتسهيل الدعارة. وهؤلاء الشباب هم ضحايا تضييق أسرهم المحافظة عليهم من ناحية، وضحايا أشكال التهميش والعنصرية التي بدأت تزداد في أوروبا بعد أحداث سبتمبر من ناحية أخرى. ولكن العنصرية وحدها لا يمكن أن تكون المسؤولة عن إجرام هؤلاء الشباب. بل إن تقصير آبائهم في بناء جسور بينهم وبين المجتمع الذي يعيشون فيه وفشلهم في توفير فرص لهم عن طريق التعليم، هي أهم أسباب أزمتهم. بل إن هؤلاء الشباب يستغلون هذه العنصرية كذريعة لتبرير فشلهم وإجرامهم. وفقدان القدوة الحسنة من أهم أسباب انحراف هؤلاء الشباب، حيث إن معظم آبائهم عاطلين عن العمل مما يحدث خللاً أُسرياً لديهم وارتباكاً حول دور الرجل الشرقي في الأسرة، مما يفقد الأب السيطرة على أبنائه من الرجال، فيحاولون تعويض ذلك بالتضييق على بناتهم أكثر وأكثر. وهكذا صار كل حي يعيش به نسبة كبيرة من المسلمين مشهوراً بجرائم القتل من أجل «الشرف» أو جرائم السطو والمخدرات.

أما الشكل الثالث فهو التطرف الديني الذي زاد عن الحد في الأحياء التي يسكن فيها المسلمون. فقد نجحت التنظيمات الإرهابية في تجنيد مجموعة كبيرة من الشباب المسلم الذي يعيش في أوروبا وقد نجح بعضهم في تنفيذ عمليات إرهابية في لندن ومدريد، في حين تم القبض على العديد منهم قبل تفجير قنابلهم بقليل. وهنا لا يلعب الفقر ومستوى التعليم دوراً يذكر، فمعظم من قاموا بتنفيذ عمليات إرهابية كانوا من عائلات غنية أو فوق متوسطة وكانوا يتمتعون بتعليم جيد، ولكن الموضوع له علاقة بمشكلات الهوية وبفهم ضيق للدين.



ويتساءل الناس في أوروبا «لماذا المسلمون بالذات؟» ففي أوروبا يعيش الملايين من المهاجرين من الجنسيات كافة، والكثير منهم قد يتعرض للعنصرية أو للبطالة أو مشكلات الهوية، ولكن لا يحاول أحد منهم أن يفجر نفسه في أتوبيس يحمل أطفالاً وعجائز سوى المسلمين. وكثيرون من هؤلاء المهاجرين جاءوا من بلدان عانت من سياسات الولايات المتحدة وحروبها مثل فيتنام واليابان وشيلي وكوريا، ولكن وحدهم المسلمون هم الذين يردون بالإرهاب على ما يجري في العالم. والتفسير من وجهة نظري بسيط جداً، وهو أن المتطرفين المسلمين لا ينظرون إلى غيرهم من الناس كبشر بل كأنعام لا تستحق الرحمة.

ولكن من الصعب أن نقول إن الدين الإسلامي هو السبب فى هذا التطرف، فلو نظرنا إلى قصص حياة الذين نفذوا الأعمال الإرهابية في نيويورك ولندن ومدريد لوجدنا أنهم كانوا يعيشون حياة عبثية قبل أن يصيروا «متدينين». معظمهم كان يشرب الخمور ويتعاطى المخدرات وله علاقات نسائية قبل أن يتعرض لـ«الصحوة الكبرى». وعندما يعود هؤلاء للدين تجدهم مثل من يعتنق ديناً جديداً، أي أشد تزمتاً وصرامة من أصحاب الدين نفسه، فيحاولون أن يعوضوا أيام العصيان بأعمال صاخبة قد تُحسب لهم في ميزان حسناتهم.

بالطبع لا يمكن أن ننظر لهؤلاء الإرهابيين كفئة تمثل مسلمي العالم، بل هم قِلَة قليلة، ولكنهم مع ذلك يوضحون إلى أي درجات الفكر قد انحط المسلمون في هذا العالم. إنهم يمثلون حالة الانفصام التي وصل إليها المسلمون الذين يشترون بضائع الغرب وأسلحته ويتداوون بأدويته ومع ذلك ينظرون إليه ككافر وعدو لله. إنهم مثال لخليط من الضعف



المادي وقلة الحيلة والعنجهية الثقافية وفقدان البوصلة وعدم الثقة في المستقبل، وهو خليط يعاني منه غالبية شباب المسلمين. وهذا الخليط يخلق التوتر في داخل الشباب، فيحاول بعضهم حمل هذا التوتر إلى الخارج عن طريق العنف. ولم تكن أحداث سبتمبر وحدها نتيجة لهذا التوتر؛ بل جاءت بعد أحداث نيويورك أكثر **14000** عملية إرهابية وانتحارية راح ضحيتها الآلاف من الأبرياء معظمهم من المسلمين أنفسهم في شرم الشيخ وجربة وإسطنبول وبالي ودار السلام وكراتشي وكابل وبغداد.

ربما لن يكون الإرهاب في صورته الحالية هو السبب المباشر في سقوط العالم الإسلامي، ولكنه بلا شك يعبر عن حالة الخلل الفكري والمادي التي تأخذ المسلمين إلى الهاوية.



خطاب ما بعد القرآن..

أو تغيير مفهوم التغيير

كان يا ما كان، رجل أراد القفز بباراشوت في ملعب كرة قدم، ولكن الرياح كانت شديدة فجرفته إلى مكان بعيد حيث سقط فوق شجرة عالية، وراح ينظر حوله فلم يرَ أحداً. وفجأة ظهر رجل محترم يرتدي ثياباً أنيقة فسأله العالق فوق الشجرة: «لو تكرمت.. هل من الممكن أن تخبرني أين أنا؟».

«طبعاً.. بكل سرور.. أنت فوق الشجرة.. وعليك أن تنزل.. ربنا معاك»، قالها الرجل الأنيق وهمَّ بالانصراف.

استوقفه رجل الباراشوت وسأله بغضب: «معذرة.. هل أنت من رجال الإصلاح المسلمين؟».

«نعم.. كيف عرفت ذلك؟»، تساءل الرجل الأنيق متعجباً.

«أولاً.. أنت تخبرني بما أعرف.. ثانيا لا تساعدني في محنتي.. وثالثاً أنا زهقت منك ومن أمثالك».

المصلحون في بلادنا يرقصون على درج السلم منذ عقود من الزمان، لا يراهم أحد بالطوابق العليا ولا يسمعهم أحد بالحضيض.



تراهم يغازلون الغرب ويريدون أن يضاجعوا الحداثة من دون عازل، ولكنهم مع ذلك يخشون من الحمل. وهكذا تراهم يخطون خطوة إلى الأمام واثنتين إلى الخلف فيوهموا الناس أن هناك حركة. يتحدث رجال الإصلاح السياسي عن تعديل وزاري أو دستوري أو انتخابات نزيهة وكأن ذلك هو لب مشكلاتنا، ويتحدث رجال الإصلاح الديني عن تفسير القرآن حسب روح العصر ويظنون أن ذلك هو السبيل للتنوير. لا أحد يجرؤ على ترك الدستور والقرآن وراء ظهره والحديث عن حالة الفكر وأسلوب الحياة التي وصلنا إليهما. فالمشكلة ليست مشكلة نصوص ولا مشكلة قانون، ولكنها مشكلة العقول التي تقرأ النصوص والناس التي تضرب بالقوانين والدساتير عرض الحائط. المشكلة هي حالة اللامبالاة التي أصابت غالبية المسلمين وعدم إيمانهم أن التغيير يبدأ بهم هم. المشكلة هي في فهمنا للتغير. نعم.. فهمنا للتغيير هو الذي يحتاج التغيير، وتفسيرنا للإصلاح هو الذي يستوجب الإصلاح.

هناك حالة من الهوس بنصوص القرآن. الإرهابي يبرر أعماله بالقرآن، ومن ينتقد الإرهاب يرد عليه بالقرآن، ومن يريد أن يصلح أحوال المسلمين يستشهد بالقرآن، وكل ذلك يحمّل القرآن فوق طاقته، فهو كتاب عقيدة وليس دستوراً أو قانوناً. والقرآن أجاب عن أسئلة الحياة اليومية في زمن الرسول، ولكنه غير قادر على إعطاء إجابات لكل أسئلة العصر الذي نعيش فيه. فكما يجب ألا نقلل قيمة القرآن كطاقة روحانية يحتاجها المؤمن ومبادئ عامة يستنير بها، يجب أيضاً ألا نقحمه في كل صغيرة وكبيرة، وألا نعتبره كفانوس علاء الدين السحري الذي يحل كل مشكلاتنا بحكّة واحدة.



المستنيرون يقولون إننا نحتاج تفسيراً عصرياً للقرآن. ولكن كيف يكون هذا التفسير العصري؟ أليس تفسير بن لادن للدين أيضاً تفسيراً عصرياً؟ ألم يبتعد بن لادن عن التفسير التقليدي الذي يمنع الثورة على الحاكم ويحرم قتل الأبرياء المدنيين؟ إذن فالتفسير العصري لا يعني بالضرورة التفسير الأفضل. حاول المصلحون منذ القرون الأولى للإسلام ومروراً بابن رشد وابن حزم وحتى محمد عبده وعلي عبد الرازق ونصر حامد أبو زيد وعبد الكريم سروج أن يفسروا القرآن حسب روح عصرهم، ولكن ذلك لم يأتِ بالإصلاح المرجو لا في الفكر ولا في السياسة.

أما آن الأوان أن نتجه اتجاهاً آخر إلى ما وراء القرآن والشريعة؟ ألا يجب أن نفتح كل الملفات الشائكة مرة واحدة ولا نغلقها قبل أن نحسم النقاش حولها جميعاً؟ ولكي نفعل ذلك لا بد أن نتفق أنه لا محرمات في الفكر ولا أسوار شائكة على العقل، وأن كل مفكر سواء أخطأ أم أصاب لا بد أن يكون آمناً في بدنه وعرضه وماله مهما كانت انتقاداته للدين أو للسلطة. لا بد أن يحدث تصالح بين الإسلام ونقد الإسلام، بل بين الإسلام والإلحاد. وهذا لا يعني أن ندعو الناس للكفر؛ ولكن أن يعيش من يؤمن بجوار من لا يؤمن بسلام، وأن يقول كل منهما رأيه كمواطن دون أن يخشى أحد من بطش الآخر. هذه هي نواة أي مجتمع مدني والخطوة الأولى للديمقراطية. وعلينا ألا ننسى أن الزنادقة وأصحاب الفكر المغاير هم من غيروا التاريخ لأنهم حركوا المياه الراكدة في مستنقعات الفكر. فبدلاً من أن نخاف ممن نسميهم ملحدين علينا أن ندين لهم بالعرفان لأنهم استنفروا فينا الرغبة في



التفكير والبحث، حتى ولو كانوا على باطل. وما دام أن هذا الواقع غير قائم فإن كل مساعي الإصلاح سوف تنتهي إلى ما انتهت إليه نظيراتها في التاريخ: إلى خانة الصفر.

نحن لا نحتاج إلى إصلاح، بل إلى إشهار إفلاس. نعم، لقد استنفدنا كل رصيدنا من بنك الحضارة وأكثرنا من الديون، وآن الأوان أن نشهر إفلاسنا؛ وإشهار الإفلاس يعني عملية جرد نتخلى بها عن حقائب ثقيلة نحملها على ظهورنا فتعوق رحلتنا إلى المستقبل. نحتاج لإعادة تقييم حقائب «التراث» و«الأصالة» و«ثوابت الأمة» و«ما عُلم من الدين بالضرورة»، فننتقي منها ما هو بنّاء وهام، ونستغني عما يخالف روح العصر ويحول بيننا وبين التفاعل مع العالم. علينا أن نقول وداعا لصور كثيرة مغلوطة نحتفظ بها في أذهاننا لحضارتنا وللعالم من حولنا. علينا أن نقول وداعاً لأبطالنا من أمثال جمال عبد الناصر الذي وأد فرص الديمقراطية. وداعاً لكل من يخدرنا بفكر متعفن من فوق منابر السياسة أو على شاشات الفضائيات. علينا أن نودع منطق القبيلة ومفهومها القديم للشرف والكرامة ونستبدل به مفهوماً جديداً أكثر نفعاً وأقل عصبية. علينا أن نحرر مقرراتنا التعليمية من هذه المناهج الانفصامية التي تدعو إلى التسامح والتعددية والمواطنة من ناحية، وتقسم العالم إلى كافر ومؤمن من ناحية أخرى.

آن الأوان أن نشهر إفلاسنا، لعلنا نبدأ بداية جديدة على أسس جديدة بعيدة عن «النفخة الكذابة» والمشاعر المتقيحة. ربما سيتساءل أحد القراء: «وماذا سيبقى من الحضارة الإسلامية لو قلنا وداعاً لكل هذا؟ ماذا سيبقى إلا الأطلال؟» قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن حتى الأطلال



يمكن أن تلعب دوراً إيجابياً لو أحسنا استخدامها، مثل أطلال الحرب في ميونيخ التي بنى بها الألمان هضبة جميلة. علّنا أيضاً نبني هضبة من حطام حضارتنا ونتسلقها كي نلقي نظرة على العالم!

قد يكون النظام الذي نعيش فيه قاسياً وصارماً، ولكن مهما كانت صرامة النظام وضراوته فإن إمكانية الإفلات منه مطروحة، فحتى قوانين الفيزياء تقول إنه مهما كان النظام مغلقاً وجامداً فإن إمكانية تغيير مفاجئ تحدث بداخله لا تزال قائمة. عاش الفيلسوف «إبيكور» في أثينا قبل 2300 عام في نظام صارم للسياسة والفلسفة. ولكنه أراد أن يعلم تلامذته كيف يهربون من هذا النظام دون أن يتركوه. قال لهم إن الذرات تسير في مسارات ثابتة وتسقط بطبيعتها في الفضاء الواسع دائما إلى أسفل بفعل الجاذبية، وهذا قانون طبيعي لا يمكن لأحد أن يغيره. ولكن لو اتبعت كل الذرات هذا القانون لما كانت هناك حياة. فسرُّ وجود الأشياء هو أن بعض الذرات (دون سبب علمي معروف) تنحرف عن مسارها بقليل فتحتكُّ بذرات أخرى في داخل المسار فتتحد بها وتخلق كتلاً جديدة، وبالتالي طاقات جديدة هي التي تسببت في تكوين الأشياء والجبال وكل العالم الحسي الذي نراه بأعيننا. وقد أطلق «إبيكور» اسم «كليانمن» على هذه العملية، وهي كلمة إغريقية معناها «الانحراف الطفيف»، وقال لتلامذته إن كل واحد منهم ممكن أن يكون «كليانمن».

هذا الانحراف الطفيف هو أيضاً إمكانية النجاة لنا. فإذا كان النظام الذي يحكمنا هو قانون الجاذبية والمسار الذي يحكم الذرات، فإن الذرات نفسها هي الأفراد. ولو قبل كل منا مساره ولم ينحرف عنه قيد أنملة لبقي الحال على ما هو عليه وما تغير شيء فينا ولا حولنا. فإذا



كانت الغالبية العظمى من أبناء شعوبنا تريد أن تتبع المسار المكتوب وتقول: «يا عم أنا عايز أربّي عيالي».. فلا بد أن يكون هناك على الأقل أقلية نشطة تقول: «أنا عايز أكون كلينامن». على هذه الأقلية ألا تخاف من النظام وأن تحتك ببعضها وتتحد كي تولد طاقات جديدة لا يتوقعها النظام. نعم هذه الأقلية قادرة على أن تفقد النظام توازنه لو آمنت بقدراتها واستغلت جميع طاقاتها.

وفي مجتمعاتنا العديد من الأمثلة لهذا الـ«كلينامن»، فنظامنا العربي والإسلامي المغلق يستفز الكثيرين منا ويجبرهم على القفز من المسار. سعد الدين إبراهيم، وعبد الكريم سروج، ونصر أبو زيد، ونوال السعداوي، وعلاء الأسواني، وإبراهيم عيسى، ووائل عباس.. أمثلة لهذه القفزات، ومثلهم الآلاف من الذين لا نعرف أسماءهم ممن يخرجون على النظام ويحرجونه في الداخل والخارج. هكذا تغير الاتحاد السوفييتي من الداخل قبل أن يسقط. كان المنشقون عن النظام يكتبون ويفضحون جرائمه في الداخل والخارج. نعم لقد كانت قفزات منشقين من أمثال «سولجنستن» و«ساخاروف» و«سينوفييف» هي التي حركت المياه الراكدة وهزت توازن نظام ظن الكثيرون أنه باقٍ أبد الدهر. نعم، التغيير يبدأ بقفزة تحتاج لجرأة وتحتاج لتكاتف وتنسيق حتى لا تنتهي بفوضى أو بحرب أهلية. وقد أمدنا الغرب بهدية ثمينة يجب أن نستثمرها وهي «فيس بوك»، فمن الممكن أن نستغله لتوحيد الذرات المبعثرة وترتيب الخطوات.

كنت في القاهرة يوم فازت مصر بكأس أفريقيا للمرة الثالثة على التوالي، ورأيت في الشوارع الفرحة العارمة التي ملأت قلوب



المصريين. نظرت في عيون الشباب والشابات فرأيت الأمل وحب الحياة. رأيت رغبتهم في أن يكونوا جزءًا من شيء كبير وجميل.. ولكن رأيت فيهم أيضاً ذرات مبعثرة لا يربطها شيء سوى حب وطن منهك. سألت نفسي ما الفرق بين هؤلاء والشباب المصري فى عهد الفراعنة الذين خلقوا حضارة ما زلنا نعيش على ميراثها حتى اليوم؟ ألم تكن نفس الوجوه والابتسامات والطاقات، فماذا حدث؟ نظرت إلى الشباب المنتشي بنصر كرة القدم ليهرب من هزائم الوطن وتساءلت: ماذا يجب أن يحدث كي يقفز هؤلاء قفزة صحيحة خلاقة، ليست مثل قفزة عباس بن فرناس التي كسرت ساقيه؟

تساءلت هل وحدها الدكتاتورية هي التي تعوق بينهم وبين حلم الحرية والرخاء؟ أم أنها طبقة كثيفة من الطين هي التي تغلف عقولهم ووجدانهم فتحول بينهم وبين رؤية الحقيقة. أو ربما كان التخلي عن الأوهام والخدع البصرية أفضل لهؤلاء الشباب حتى من الوصول إلى الحقيقة. كل ما يحتاجه هؤلاء الشباب هو أن يفتحوا عقولهم وبصائرهم لمبادئ التنوير ويفهموا أن الحرية ليست هدية يمنحهم إياها قائد أو زعيم بل هي حق يُغتصب بالمعرفة والوعي وليس فقط بالمظاهرات والاعتصامات والصراخ. التنوير هو الضمان الوحيد أن تتم تعبئة الشعب لتغيير حقيقي مسالم لا ينتهي بنا إلى حرب أهلية. المدرسون والصحفيون وأئمة المساجد هم أهم أدوات هذه التعبئة. فلو تخلى المدرسون عن أسلوب التلقين السلطوي وغرسوا في عقول طلابهم القدرة على التفكير الحر ونقد ذواتهم وحتى نقد المعلم نفسه، ولو تخلى الصحفيون عن أساليب الفرقعة ومداعبة العواطف في التعامل



مع تقاريرهم ومقالتهم وعرّفوا المواطنين حقوقهم وكيفية الحصول عليها، ولو تخلى الأئمة عن وعظهم بالقصص والحواديت وتركيزهم على المحرمات وعادوا إلى روح الدين وعقلانيته، لو نجح هؤلاء في تعليم الناس أن ينتقدوا ذواتهم أولاً وألا يقبلوا أي شكل من أشكال الظلم حولهم، لتغيرت أحوال البلاد حتى قبل إجراء انتخابات نزيهة. من مقولات الشيخ الهضيبي التي تعجبني: «أقيموا دولة الله في قلوبكم، تقم على أرضكم». وبما أني من أنصار الدولة المدنية فإني أقول: «أقيموا الديمقراطية في عقولكم وقلوبكم، تكن واقعاً على أرضكم»، فهذه هي الديمقراطية الحقيقية التي لا يستطيع أحد أن يتحايل عليها أو يدمرها حتى ولو بانقلاب عسكري. أما الديمقراطية التي تُفرض من أعلى فمن السهل إلغاؤها أو تعطيلها، فإن من يمتلك القوة لأن يمنحنا الديمقراطية يمتلك القوة نفسها ليحرمنا منها متى يشاء. التنوير هو الحل. التنوير هو أولى خطوات التغيير.

عرّف الفيلسوف الألماني «إيمانويل كانط» التنوير بأنه التخلص من حالة التبعية التي يُسقط فيها الإنسان نفسه بنفسه. وقال إن التبعية تنشأ حين يعطل المرء عقله ويعتمد على تعليمات وتفسيرات الآخرين فيتركهم يتحكمون في قدره. ولكن لدينا في العالم الإسلامي نظرة خاطئة عن حركات التنوير فنعتقد أنها تنكر الدين وتنادي بالإلحاد لأنها قلصت من سلطة الكنيسة في أوروبا. في الحقيقة، فقد كانت هناك أكثر من حركة تنوير في أوروبا، وبعضها قام بثورات ضد الكنيسة مثل حركة التنوير الفرنسية، والبعض الآخر نشأ من داخل الكنيسة ذاتها مثل حركة التنوير الإسكندنافية. فقد كان قائد هذه الحركة رجل دين دنماركي

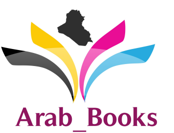


يدعى «نيكولاي جروندفيج»، وقد حاول أن يستنبط التنوير من تعاليم المسيحية نفسها وقال إن دور الدين هو أن يساعد الإنسان على التصالح مع إنسانيته وأن يطور من نفسه لا أن يصير عبداً للطقوس والتعاليم الدينية. كان «جروندفيج» يقول للمصلين في الكنيسة التي كان يعظ فيها: «كن بشراً أولاً ثم مسيحياً. كن مواطناً لهذا العالم!». أسس «جروندفيج» نقابات للعمال والفلاحين وأسس أول حزب سياسي كان هو الأساس في التجربة الديمقراطية الدنماركية التي تتعلم منها أوروبا حتى اليوم.

إذن فنحن لسنا بحاجة لمن يشككون في العقائد ويهاجمون الدين، ولكن إلى مصلحين من داخل المساجد والمؤسسات الدينية ومن خارجها.. مصلحين ليسوا عباداً للحروف والنصوص. نحتاج أئمة ممن درسوا العلوم والفلسفة كي يساعدوا الشباب على إعمال العقل ونقد أوضاعهم وكل من يتحكم فيهم حتى لو كان رجل دين. نحتاج نساءً يتفقهن في الدين ويشرحنه لأبنائهن من وجهة نظر غير ذكورية. نحتاج أن نحترم كل إنسان سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو بهائياً، سنياً أو شيعياً أو علوياً. نحتاج أن نُعلي صوت العقل ونخرس صوت الخرافات. ولكن الإصلاح لا بد ألا يظل حبيساً للخطاب الديني فقط، بل يجب أن يتوغل إلى قضايا المجتمع الأخرى التي لا علاقة لها بالدين.

لو كان الأمر بيدي لسألت مؤذني المساجد أن يضيفوا جملة «إيمانويل كانط» الشهيرة إلى الآذان التي صارت شعار حركة التنوير «لا تخف من إعمال عقلك».




Arab_Books

خمس دقائق قبل الثانية عشرة..

أو من سيوقف الانهيار؟

الحُلم شيء والواقع المر شيء آخر. والتنوير لن يأتي للعالم الإسلامي بمقولة كانط «لا تخف من إعمال عقلك»، ولا بمقولة علي بابا «افتح يا سمسم!» وأنا أعتقد - وأشعر بالمرارة حين أكتبها - أنه قبل الانفتاح سيأتي الانهيار أولاً، لأننا تأخرنا كثيراً عن ركب الأمم وضيعنا كل فرصة عرضها علينا التاريخ للتغيير واكتفينا بإخفاء قاذوراتنا تحت سجاد المنزل لقرون حتى صار البيت غير صالح للسكن. على المستوى الفكري يزداد المتطرفون تطرفاً ويزداد المتحررون تحرراً وهذا ينذر بصراع دام مثل الحروب الدينية التي مزقت أوروبا في العصور الوسطى. أتوقع أن ما حدث في أفغانستان والجزائر والسودان والصومال والعراق من حروب أهلية وإرهاب سيصير مصير معظم الدول الإسلامية التي لم تسرع بإصلاح سياستها وتعليمها في الوقت المناسب. إن الطريق إلى الديمقراطية يمر بالأسلمة أولاً وهذا معبر صعب واختبار قد لا يتخطاه الكثيرون. فلم يعد لدينا وقت نفقده في تجارب ومراهنات، فالساعة تقترب من الثانية عشرة، والأخطار تتربص بنا من كل الاتجاهات.

وهذه الصراعات الفكرية والعقائدية التي توغلت في العالم الإسلامي



سوف تزداد اشتعالاً بسبب مشكلات البيئة التي تواجهها المنطقة. فبعد ثلاثين عاماً ستجف آبار البترول، كما يتوقع الخبراء، وسينتهي أهم مصدر من دخل دول الخليج. وسيكون لذلك تبعات اقتصادية ليس فقط على الدول المصدرة للبترول وحدها؛ بل على ملايين العمال الأجانب الذين يعيشون هناك. سيعود هؤلاء العمال بأيد فارغة وعقول مسممة بالأفكار الوهابية لمواطنهم الأصلية فيكونون عالة عليها. كما ستؤثر التغيرات البيئية على معظم المنتجعات السياحية العربية؛ حيث ستختفي بعض الشواطئ تحت مياه البحر وستصبح مزارات أخرى غير جذابة بسبب ارتفاع درجة الحرارة فيها. كل ذلك تتوقعه أول دراسة عربية عن مستقبل البيئة في العالم العربي التي تنذر بكارثة حقيقية تفوق كل التخيلات.

ففي الدراسة التي أجراها المنتدى العربي للبيئة والتنمية (AFED) ببيروت والتي نُشرت في أواخر عام 2009 يتوقع الباحثون أن تصيب حالة من الجفاف الشديد منطقة الهلال الخصيب بين العراق وسوريا في السنوات القادمة، في حين ستختفي 12% من دلتا النيل تحت مياه البحر الأبيض المتوسط بسبب ارتفاع درجات الحرارة وذوبان الجليد قرب القطب الشمالي. كما سيؤدي ارتفاع منسوب المياه في البحر والتصحر والتجريف إلى خسارة المناطق العربية مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية ستكون نتيجتها نقص المواد الغذائية بنسبة 50% في البلاد العربية خلال الخمسين عاماً المقبلة. وفي مصر بالتحديد سيعاني السكان من نقص في مياه الشرب والمواد الغذائية وتراجع في موارد السياحة وقناة السويس بسبب التغيرات البيئية مع زيادة مستمرة في عدد السكان ونسبة التصحر مما ينذر بكارثة.



والسؤال الآن: كيف يمكن للاقتصاد العربي أن يتعامل مع كل تلك المتغيرات؟ كيف يمكن للدول التي عاشت تاريخها كله تعتمد على الموارد الطبيعية أن تعيش بعد أن تفقد تلك الموارد. أين البدائل الاقتصادية للبترول والسياحة والزراعة؟ لا بد للاقتصاد العربي أن يعيد اختراع نفسه في أقصر فترة ممكنة إن كان يريد أن يواجه تلك الكارثة. ولكننا نحتاج تكنولوجيا جبارة وتقنيات عالية وجموعاً من الشباب المؤهل، وكل ذلك غير متوفر لدينا بسبب فقر التعليم وتأخر البحث العلمي. كما أن حكامنا يعيشون بمبدأ «أنا.. ومن بعدي الطوفان» ولا يخططون للمستقبل. لذا فإن السقوط الفكري والمعنوي للحضارة العربية الإسلامية سوف يؤدي إلى سقوط مادي واجتماعي وسياسي إذا لم نغير ما بأنفسنا بأسرع ما يمكن.

ومن الجدير بالذكر أن المصائب البيئية ليست سيناريو مستقبلياً، بل واقعاً نشهده منذ سنوات من تصحر وجفاف. وسوف تتسبب هذه الظواهر البيئية في حروب أهلية وإقليمية عربية كما يتوقع عالم البيئة الألماني «هارالد فيلتسر» في كتابه «حروب البيئة.. من أجل ماذا سيقتل الناس في القرن الحادى والعشرين»، ويقول «فيلتسر» إن مأساة دارفور ليست مأساة عرقية كما يصفها الكثيرون ولكنها نتيجة حتمية لمشكلات البيئة التي لم ينتبه لها أحد في السودان. فيقول الخبير البيئي إن شمال السودان فقد في الأربعين عاماً الماضية ما يزيد على 100 كيلومتر مربع من الأراضي الزراعية بسبب التصحر، مما سبب المجاعات، وكان هذا هو السبب الذي قاد لزحف الشمال نحو الجنوب الخصيب؛ مما أدى إلى الحرب الأهلية التي راح ضحيتها مئات الآلاف وتشرد بسببها



خمسة ملايين نسمة من أبناء السودان. كما يتوقع تقرير المنتدى العربي للبيئة أن تتعرض منطقة الخليج لجفاف شديد يهدد الكويت والسعودية والإمارات بشكل مخيف، كما ستجف مياه نهر الأردن بصورة تجعل الصراع بين إسرائيل وجيرانها العرب يدخل في مرحلة حرجة جديدة. الحروب من أجل كِسرة خبز ومن أجل رشفة ماء هو ما يتوقعه لنا خبراء البيئة المحليون والدوليون في المستقبل القريب. فهل أعددنا العدة لذلك أم أننا ما زلنا ننظر إلى الأبحاث العلمية كخرافات أو كضرب من ضروب قراءة الكف؟

ماذا نفعل لمواجهة الكوارث القادمة؟ ما زلنا نستهلك كل شيء بنهم ونغتصب البيئة اغتصاباً. ما زال أثرياؤنا يشترون السيارات الفارهة التي لا ترحم البيئة. ما زلنا نحطم الشواطئ بالفنادق الشاهقة وننسف المساحات الخضراء. وقد افتتح المنتدى العربي للبيئة مؤتمره ببيروت بلافتة استغاثة «نحن لا نستطيع أن نشرب النفط»، حيث إن التقرير طالب دول الخليج بتقليل إنتاج النفط وتطوير بدائل أخرى للطاقة مثل الطاقة الشمسية. ولكن دول الخليج وبخاصة السعودية رفضت ذلك.

ومن المثير للسخرية أن دولاً مثل ألمانيا أصبحت رائدة في إنتاج واستخدام الطاقة الشمسية رغم أن الأيام التي تسطع فيها الشمس في ألمانيا على مدار العام معدودة. أما نحن في بلاد الشمس فننتظر أن يعبئ لنا الألمان الشمس في زجاجات كي نشتريها منهم بأبهظ الأثمان. ويشارك في مشروع «ديزرتيك» الذي ينوي إنشاء محطات طاقة شمسية عملاقة في شمال أفريقيا لنقل الطاقة عبر البحر المتوسط إلى أوروبا العديد من الشركات العالمية، ولكن لا توجد بينها شركة عربية واحدة.



مرةً أخرى سنقف في انتظار القطار ثم نكتشف بعد فوات الأوان أنه مر علينا ونحن نائمون على الرصيف.

الصحراء والبشر والجهل والفقر والتصحر في زيادة مستمرة، والبترول والموارد الطبيعية والغذائية ومياه الشرب في نقصان سريع. الأصولية والطائفية تفترس العقول مثل السرطان، وكراهية كل ما هو غريب وجديد تزداد يوما بعد يوم. كل ذلك يخلق خليطاً من الديناميت يهدد بتفجير العالم الإسلامي.

هناك قانونان يحكمان الطبيعة منذ بداية العالم: المرونة والتنوع. وكل من يخالف هذين القانونين ينتهي به المطاف إلى الفناء. والعالم الإسلامي عاند هذين القانونين طويلاً فاستحق الفناء. كل ذلك يقودني إلى نبوءة قاسية لا أحب أن أنطق بها وهي أن العالم الإسلامي سيسقط وسيُسقِط معه العالم كله في كارثة مروعة. وكما قال الياباني فوكوزاوا يوكويتشي «وداعاً آسيا» سيقول المسلمون قريباً «وداعاً أيها الشرق»، ولكنه لن يكون وداعاً للتخلف والأصولية، بل سيكون وداعاً للأوطان. ستفقد الدولة سيطرتها على المواطنين وسيفقد المواطنون السيطرة على أنفسهم. سيعم الجوع والفوضى والعنف وسيسود قانون الغاب. وستكون النتيجة هي هروب الناس إلى أوروبا.. كعبة يأسنا وميناء رجائنا الأخير.. أوروبا، الكافرة السافرة التي نكرهها ونحلم بها ونحتقرها ولا نستغني عنها، ستكون بوابة أملنا الوحيدة. ستمتلئ قوارب «النجاة» باللاجئين فيغرق منهم من يغرق ويصل من يصل. وستقف أوروبا أمام خيارين أسهلهما صعب: فإما أن تفتح بواباتها للاجئين وتدمر بذلك اقتصادها، أو تغرقهم على شواطئها فتخسر مصداقيتها. مرةً أخرى

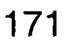


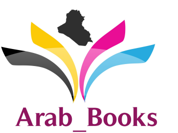
ستتصادم خطايا الشرق بخطايا الغرب في لقاء جديد غير متكافئ. وعندها ربما ستتحقق نبوءة «أوزفالد شبنجلر» بسقوط الغرب أيضاً، لأن سقوط الشرق لو حدث سيجر معه الغرب إلى الحضيض، فهذا هو الوجه الآخر لميدالية العولمة.

ستحترق الغابة وسيصعد الدخان إلى السماء. ولكن مع ذلك ستنمو أشجار جديدة من الجذور المحترقة يوماً ما. الحضارات تأتي وتذهب مثل قلعة يبنيها الأطفال من الرمال على الشاطئ. ولكن البحر سيبقى، وستواصل أمواجه المجيء والذهاب سواء كانت هناك قلاع على الشاطئ أم لا!



الفهرس

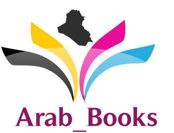




٢٠١٦ / ١٢ / ٢٠

Rashed




Arab_Books

ما أحاول أن أقدمه في هذا الكتاب هو نظرة إلى تاريخ السقوط الإسلامي وتحليل سياسي لأبعاده ونتائجه وما يعنى ذلك للعالم لو سقط جسد ثقيل مثل الجسد الإسلامي في قلبه. بالطبع فإنه من الصعب الحديث عن عالم إسلامي واحد؛ فهناك تباين واضح بين المغرب وإندونيسيا وبين دبي والسنغال. ولكنى لا أتحدث عن العالم الإسلامي ككيان سياسي وإنما كحضارة وككتلة ثقافية تجمعها أفكار ومبادئ متقاربة. وأرى أن بعض هذه الأفكار تقف حاجزاً بين العالم الإسلامي وباقي البشرية؛ فكل الإحصائيات العالمية والمحلية تؤكد أن العالم الإسلامي صار في ذيل الأمم، من حيث تطوير التعليم والبحث العلمي وحماية حقوق الإنسان والمرأة والبيئة.. وكلها عوامل تؤدى إلى العزلة عن العالم وضعف الاقتصاد واستحكام الدكتاتورية. حتى إندونيسيا وماليزيا وتركيا التي كنا ننظر إليها كنماذج ناجحة في مجالات الاقتصاد والتعليم والديمقراطية بدأت في التراجع عن خطواتها التقدمية وسمحت لقوى المحافظين والسلفيين بفرض أفكارها. حتى في هذه الدول الثلاث يزحف الإسلام السياسي نحو السلطة ويحاول عرقلة الخطوات الديمقراطية.

Designed by CMYK Studio



دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492576 - 07711002790
e.mail: bal_alame@yahoo.com


ISBN 978-1-7732201-6-1